مع أشجان الروح

نَوافِذُ الإقدَام وَمَوطِئُ قَدَمٍ بَينَ الأَقدَامِ

مَعالم عُبوديّة حَرَكِيّة رَاشِدة

تأليف
د. عبد المجيد البيانوني

دكتوراة في الشريعة وعضو رابطة الأدب الإسلاميّ العالميّة
المشرف العلميّ على موقع الميثاق التربويّ

الطبعة الأولى 1429هـ

يطلب من المؤلّف ص ب /
45206/ الرمز 21512/ جدّة ـ
المملكة العربيّة السعوديّة
جوّال /0503619445/
البريد الضوئيّ
ALBYANI@YAHOO.COM

الإهدَاءُ

إلى روح العَالِـمِ الداعية العَلَم .. الــذي وهب حياته لــدعوة الحــقّ منذ نعومة أظفــاره ، وعــاش لها في ليله ونهاره ، وسرّائه وضرّائه .. وقيل عنه بحقّ : تاج العلماء ..

وكان شيخ الشباب وقائد الرجـال .. نبغ صــغيراً .. واخترمته يــد المنيّة كهلاً ..

عـاش غريبـاً .. ومـات غريبـاً .. وكـان بحـقّ مُعَلّمـاً مُلهَمـاً ومُلهِمـاً .. تعلّمتُ منـــــــه في الدعوة والحياة دروساً ..

أهدي إليه هذا الكتـاب بعضـاً من حقّه عليّ ووفـــاءً .. ولأنّي اســتلهمت كثيراً من أفكاره من حياته .. وأســأل الله تعالى أن يتغمّده بواسع رحمته ..

سأذكرُ مَا حَييتُ حبالَ وُدّ
وهل تُنسَى عُهُودُكَ وَالوَفاءُ

رِياضٌ أو ظِلالٌ في هَجير
ومِن سَلسَالها عَذبٌ صَفاءُ

سَأرعَاها وَأحدُوها بِقَلبٍ
أبيّ لا يُنغّصُــه جَفَــاءُ

إلى حِين اللقا في ظِلّ عَرشٍ
وَعندَ الله يَعلُو الأوفِيـاءُ

وإلى كـــــلّ من يحمل همّ الإسلام ، ويحيا لأجله .. أهدي هذا الكتاب نصحاً وذكرى .

المؤلّف

هَذِهِ النوَافِذُ

نوافذ ثمان أشبه بأبواب الجنّة الثمانية .. التي ربّما دعي المؤمن ذو الهمّة العالية منها كلّها ، كما جاء في الحديث عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ قَالَ : (مَنْ أَنْفَقَ زَوْجَيْنِ فِي سَبِيلِ اللهِ نُودِيَ فِي الجَنَّةِ : يَا عَبْدَ اللهِ هَذَا خَيْرٌ ، فَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصَّلاةِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الصَّلاةِ ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الجِهَادِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الجِهَادِ ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصَّدَقَةِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الصَّدَقَةِ ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصِّيَامِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الرَّيَّانِ ، قَالَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ : يَا رَسُولَ اللهِ مَا عَلَى أَحَدٍ يُدْعَى مِنْ تِلْكَ الأَبْوَابِ مِنْ ضَرُورَةٍ ، **فَهَلْ يُدْعَى أَحَدٌ مِنْ تِلْكَ الأَبْوَابِ كُلِّهَا ؟** قَالَ رَسُولُ اللهِ : (**نَعَمْ وَأَرْجُو أَنْ تَكُونَ مِنْهُمْ**) [1] .

1 ـ النافذة الأولى : نافذة الإرادة والهمّة .

---

[1] ـ رواه البخاريّ في كتاب الصيام برقم /1764/ ومسلم في كتاب الزكاة برقم /1705/ وغيرهما .

2 ـ النافذة الثانية : نافذة العلم والحكمة .
3 ـ النافذة الثالثة : نافذة العمل .
4 ـ النافذة الرابعة : نافذة التغيير .
5 ـ النافذة الخامسة : نافذة التميّز .
6 ـ النافذة السادسة : نافذة التحدّي .
7 ـ النافذة السابعة : نافذة الصبر واليقين .
8 ـ النافذة الثامنة : نافذة الآثار .

إنّها نوافذ السموّ الدعويّ ، ومأدبة العبوديّة الصـــادقة ، ومفاصل الحيويّة الإيمانيّة ، الحركيّة المتألّقة ..

إنّها نماذجُ لنوافـذ الخـير الـتي تطـلّ بـك على أبواب الجنان ، وتفتحها لك بإذن الله .. وتسرّ إليك أنّ نوافذَ الخير ما أكثرها .!

إنّها نوافـذُ إيمانيّـة حركيّـة ، تنطلـق من النفس ، ويتعدّى خيْرُها النفس ، إحيـاء للمنهج الربّـانيّ ، ليكـون لها منْ نفع الآخرين منهج حياة ، لا تكلّ عنه ولا تحيد ..

إنّها نوافذُ الأهداف الشريفة ، التي تجعلُ لكلّ لحظةٍ مِن لَحظَاتِ الحيـاة قيمـةً عليـا ، تقـدّر بجنّـة عرضها السموات والأرض ..

إنّها إشَارات مـوجزة ، لا يتّسـع الـوقت والمقـام إلى التوسّع في تفصيلها .. تدعوك إلى أن تأخذ بهـا ، وتتعمّق في فهمِها ، وتجمع إليها أمثالها .. وما أكثرها !.

إنّها ملامح الرجال الذين نريدهم ؛ الماضين على الطريق بكلّ جدّ ، لا يصدّهم عن نصرة الحقّ والجهاد في سبيله شيء ، يحملون الأمانةَ ، ويبلّغون الرسالة ، ويصنعون لهذه الأمّة المكلومة المنكوبة غدها المشرق بإذن الله ..

قد وضعوا نصب أعينهم هذا المثل المؤثّر الذي ضربه فيلسوف الإسلام محمّد إقبال رحمه الله [1] ، وفيه عظة بالغة ، وعبرة موقظة :

لَحظةً يا صَاحِبي إن تَغفُلِ ألفَ مِيل زَادَ بُعدُ المَنزِلِ

---

[1] ـ انظر مجموعة الأعمال الكاملة لإقبال 1/226 ، ديوان الرموز والأسرار .

رَامَ نَقشَ الشَّوكِ يَوماً رَجُلُ فَاختَفَى عَن نَاظِرَيه المَحمَلُ

هذا من غفل لحظة ، فكيف بمن يقظتـه إنّمـا هي لحظات عابرة من مدى عمـره .؟ ومـا سـواها غفلات متوالية ، وضياع للعمر بغير حسـاب ، فكيـف يصحّ له سير ، أو يرقى له حال ، فانظر أين مواقـع أقدامك في هذا الطريق .؟

فاحرصْ على أن تكون نوافـذ خـيرك مفتوحَـةً دائمــاً ، ولا تســتغرقْ جهــدك ووقتــك في نافــذة واحدة ، وتنسَ النوافذ الأُخرى التي تنتظرك ، تقتل نفسَك وهمّتَكَ .. وربّمـا شـغلتَ نفسَـك بالمفضـول عن الفاضل ، أو حبست نفسك عن آفاق رحبـة ، لا يــدانيها شــيء ممّــا أنت فيــه .. وتلــك من عللنــا النفسيّة والاجتماعيّة المُزمنة [1] .

---

[1] (؟) ـ أصل هذه الرسالة محاضرة طُلب من الكاتب إلقاؤها في ثُلّة مختارة من الإخوة الكرام ، الذين التقاهم لأوّل مـرّة وآخـر مـرّة ، ممّن طابت سيرتهم ، وزكت سـرائرهم ، كمـا زكّـاهم لـه من يعـرفهم ، وتنـوّعت أعمـالهم واهتمامـاتهم ، فمنهم الطــالب ، والموظّــف والتــاجر ، وصــاحب المهنة ، والتخصّــــص العلميّ .. ولم يعرف مســــتواهم العلميّ والفكريّ ، ولكنّهم يجمعهم الاهتمام بالدعوة ، والغـيرة على

*ـ العلاقة بين هـــذه النوافذ : وتتجلّى العلاقة بين هذه النوافذ في جانبين مهمّين :

ـ الأوّل : أنّـه لا يمكنُ فتْحُ نافـذة قبـل إحكـام العمل بما قبلها .. وبخاصّة النافذة الأولى : نافــذة الإرادة والهمّة ، فهي بحقّ نافـذة النوافـذ ، يمكن أن تضاف إليها أيّة نافذة .. ولا تكون هي تبعاً لما سواها .. ولن يفلح من يمشي معكوساً أو منكوساً ، فهو لن ينتفع بجهد ، ولن يبلغ غاية .. فأحكم خطـوات سيرك ، وامض نحو غايتـك قـدماً ، مسـتعيناً باللـه ، عليه متوكّلاً ..

ـ والثاني : أنّ كلّ واحـدة من هـذه النوافـذ زاد لما بعدها ، ورصيد لها .. وعندمَا يقف الإنسـان عنـد أيّة عقبة من عقبـات بعضـها ترتـدّ نفسـه بصـورة لا شعوريّة إلى ما قبلها ، تستمدّ منها العون والتأييـد .. ثمّ تتابع طريقها ..

دين الله .. ففتح الله جلّ وعلا عليه بهذه المعاني ، التي هي أرزاقهم ســاقها اللــه تعــالى إليهم ، فلقيت منهم قبــولاً واستجابة ، وقد أعقبها أسئلة ، أثرت الموضوع وأغنته ، وقـد أضفت الإجابة عنها إلى الأصـل ، فالحمـد للـه على توفيقـه وفتحه ، وأسأل الله جلّ وعلا أن يعمّ النفع بها .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

كلمات مضيئة

يقول الفضيل بن عياضٍ رحمه الله : " والله ما صدق في عبوديّته منً لأحدٍ من المخلوقين عليه ربّانيّة " . ولنا أن نعمّم أكثر فنقول : " من لشيء عليه من الخلق ربّانيّة " .

ومن أقـــوال الســـلف : (الحريّة حريّة القلب ، والعبوديّة عبوديّة القلب) .

الرقيق الأسير أسير شهوته الأثيمة ، ولـو عـاش في رحـاب القصـر الأبيض ، في حمايـة القوّة الحصينة .. **والحرّ حـرّ** الـروح والقلب ، ولـو أنزلـوه من رحـاب القصـور إلى ظلمـات الزنازين الدفينة .. وهل فلّ عزائم الأخيار حصار الشعب أو فتنة الضرار .؟! إنّه كيوسف الصدّيق عليه السلام ، الـذي آثـر حريّـة قلبـه وروحـه ، على شهوة نفسه ، ورقّ قلبه ..

وما أبلغ كلمة الإمام ابن تيمية رحمه الله وما أعظمها من حكمة : (المحبوس من حُبس قلبه عن ربه ، والمأسور من أسره هـواه) . و " من أراد الســـعادة الأبديّة فليلـــزم عتبة العبوديّة " .

وقال بعض الصالحين : " مَن بُـورك لـه في عمـره أدرك في يسـير من الـزمن مِن مِنَنِ اللـه تعالى ما لا يدخل تحت دوائر العبارةِ ، ولا تلحقـه الإشارة " .

" ربّ عُمُر اتّسعت آمـاده ، وقلّت أمـداده ، وربّ عُمُر قليلةٌ آمادُه ، كثيرةٌ أمدادُه " .

" الخـــذلان كـــلّ الخـــذلان أن تتفـــرّغ من الشواغل ، ثمّ لا تتوجّه إليه ، وتقلّ عوائقـك ثمّ لا ترحل إليه " .

بسم الله الرحمن الرحيم

(.. گ ﮓ ﮔ ﮕ ﮖ ﮗ ﮘ ﮙ ﮚ ﮛ ں) الكهف .

(.. ﮕ ﮖ ﮗ ﮘ ﮙ ﮚ ﮛ ں ڻ ڻ ڼ) البقرة .

(.. ژ ڙ ڙ ڑ ک ک ک) الأعراف .

الحمد لله مُعزّ الإسلام بنصره ، ومُذلّ الشركِ بقهره ، ومُصرّف الأمور بأمره ، ومُديم النعم بشكره ، ومُستدْرج الكافرين بمَكره ، الذي قدّر الأيّام دولاً بعَدله ، وجعل العاقبة للمتّقين بفضْله ، وأفاءَ على عباده من ظلّه ، وأظهر دينه على الدين كلّه ، القاهر فوقَ عباده فلا يُمانَع ، والظاهر على خليقته فلا يُنازع ، والآمر بما يَشاءُ فلا يُراجع ، والحاكم بما يريد فلا يدافع [1] ، (ژ ڙ ڙ ڑ ک ک ک ک

[1](?) هذه مقدّمة الخطبة التي ألقاها أوّل جمعة بعد افتتاح بيت المقدس أبو المعالي محيي الدين محمّد بن أبي الحسن علي بن محمّد القرشيّ المعروف بابن الزكيّ الفقيه الشافعيّ ، قاضي القضاة ، يتّصل نسبه بعثمان بن عفّان ، ولد بدمشق سنة 550 هـ وتوفّي سنة 598 هـ ، ودفن بسفح جبل قاسيون ، وقد ذكرت هذه المقدّمة هنا

ﮒ ﮓ ﮔ ﮕ ﮖ ﮗ ﮘ ﮙ ﮚ ﮛ ﮜ ﮝ ﮞ ﮟ ﮠ ﮡ ﮢ ﮣ □
ﮤ □ ﮥ □ ﮦ □) الإسراء . والصلاة والسلام على سيّد ولد آدم ، وخاتم الأنبياء والمرسلين ، سـيّدنا محمّـد بن عبد الله ، وعلى آله وصحبه ومن والاه .

وبعد ؛ فـإنّ بنـاء الإنسـان هـو حجر الزاوية في كلّ نهضة .. وبناء الإنسـان لا يقف عند حـدّ ، ولا يقيّد بـــزمن ، لأنّ أجيـــال النـــاس تتواصل وتتـــداخل ، والحياة تمور بـــالمتغيّرات ، الـــتي تتطلّب رؤىً متجـــــــــدّدة ، ومواقف جديدة ، وتطــويراً في الأســاليب والوســائل يتناسب مع شرف الغاية ، وسموّ الأهداف ..

وإنّ العمل الدعويّ يعدّ قمّـة نشـاط المـؤمن ، بعــد الإيمــان والأخــذ بــالعلم ، وفقــه دين اللــه ، والالتزام بمقتضاه من العمل .. فالحمد لله الذي لم يجعلنا في حيرة من أمرنا ، ولبسٍ في ديننا ، وقلــقٍ

تيمّناً وتفاؤلاً بنصـر من اللـه قـريب ، على بغـاة اليهـود ومن يساندهم من قوى الإجرام والإفسـاد في الأرض ، ويقولـون : متى هو ؟ قل : عسى أن يكون قريباً ، ولله الأمـر من قبـل ومن بعد .

يجتاح ضمائرنا وأرواحنا ، فتضلّ عن منهجها وسبيلها ، لا تدري لها مبدأً ، ولا تعـرف لهـا مصـيراً ، ويكـون حالنا أشبه بحال ذلك الحنيفيّ في الجاهليّـة ، عمـرو بن نفيل الخزاعيّ ، الـذي كـان يجلس أمـام الكعبـة المشرّفة ، يتأمّلها ويناجي ربّه ، وقـد عرفـه ووحّـده بفطرتـه ، ثمّ يرفـع بيـده حفنـة من تـراب الأرض ، فيسجد بجبينه عليها ، ويقول ، والحسرة تأكل فؤاده : **" اللهمّ إنّي لـو أعلم أحبّ الوجـوه إليـك لعبدتك به ، ولكنّي لا أعلمه .! " .**

أيّهـا الإخـوة الأحبّـة ! بم أريـد أن أتحـدّث إليكم ؟! ومـا يثـير اهتمـامي قـد لا يكـون مثـيراً لاهتمـامكم ، ومـا قـد يُهمّكم الحـديثُ عنـه لا أعرفـه مسبقاً .. وقـد لا أتقنـه .. فمِن ثمّ يكـون حـديثي عاريـاً عمّـا أسـمّيه : " **فنّ الخطـاب** " ، أو " **فصـل الخطـاب** " في هـذا المقـام ، ولكنّي أريـد أن أثـير اهتمـامكم .. وقـد أردت أن يكـون حـديثي إليكم أيّهـا الأحبّـة محاضـرة لا كالمحاضـرات .. محاضـرة هي أشـبه بمراجعـة النفس ومناجاتهـا .. هي أشـبه

بالقراءة في خارطة الوجود الإسلاميّ والإنسـانيّ .. وهــل كــلّ النــاس يتقن مثــل هــذه القــراءة ، أو يحسنها .؟ القراءة من عالَمِ فضـاءٍ محلّـق .. يشـهد النـاسَ يمـورون بحركـاتهم النفسـيّة والاجتماعيّـة ، متجسّــدةً في ســلوكٍ متبــاين ، لخّصــته الكلمــات الربّانيّة : (.. ﭖ ﭗ ﭘ ﭙ ﭚ ﭛ ﭜ ﭝ ﭞ ﭟ ﭠ ﭡ ﭢ ﭣ ﭤ ﭥ ﭦ ﭧ ﭨ) البقرة ، وهناك من يسفك الدم الحـرام حسّـاً ، وهنـاك من يسـفكه معـنىً : بإهـدار كرامـة الإنسـان ، وتحطيم إرادتـه وكيانـه ، وقتـل همّتـه وطموحـه ، وهنـاك من يقتـل نفسـه وينتحر حسّاً أو معنى ..

أيّهــا الإخــوة الأحبّة ! هــل تســتطيعون الخــروج عن دنيــاكم قليلاً .؟ عن الوالــد والولــد ، والدراسة وهمومها ، والزوجـة والأهـل .. والوظيفـة والتجارة .. وأخبار الناس ومشكلات الحياة .. لنعـود إلى ذواتنــا قليلاً .. لنعــود إلى دواخلنــا .. حــاولوا ذلــك .. وقفــوا معي قليلاً في هـــذه الســاعة للمراجعة ..

نحن في زمن السباق المحموم بين بني البشر على أن يحوز **" الإنسان الفرد " كلّ شيء** .. ولا يترك لأحدٍ سواه أيّ شيء .. حتّى ولو **موطئ قدمٍ** ..

في عالم المادّة : الكبار يتنافسون على أكل الصغار .. ثمّ أكل مَن هم فوق الصغار من المتوسّطين .. ثمّ يصطرعون فيما بينهم .. فيتشظّى بعض الكبار .. على حساب بعض .. ويصير بعضُهم أكبرَ ، ويعود بعضُهم صغاراً .. ويخسف بقارون الأرض .. وتعود دورة الحياة من جديد .. **وتمضي دوّامة الصراع تدور حول رحاها** ..

ومع هذا السباق المحموم بين بني البشر نريد أن نبحث لنا عن **موطئ قدم** من نوع آخر .. وأن ننظر أين موطئ قدمنا في عالم الدنيا ، وعالم الآخرة .؟ وهي التي عليها المعوّل .. ومن فاتته فاته كلّ شيء :

على نفسه فليبك من ضاع عمره

وليس له فيها نصيب ولا سهمُ

وهذا الدين منهج حياة ، يمنح الإنسان السعادة الحقّة ، إذ تلتقي فيه الدنيا بالآخرة ، في تقارب وامتزاجٍ ما عرفته البشريّة في تاريخها الطويل إلاّ على يد أنبياء الله ورسله ، ومن سار على نهجهم .. ولكن بشرط واحد ، هو أن تخلص النيّة وتصفو ، وتتَجرّد عن الدنيا بأهوائها وشهواتها ، والوقوف عند حظوظها العاجلة ..

إنّ من العلل التي لا ينتبه إليها كثير منّا : أنّنا كثيراً ما نعظّم أعمالنا ، وما نحن فيه .. ونقلّل من أعمال الآخرين وننتقصها .. ونفكّر في واجب الآخرين ، ونلومهم على تقصيرهم ، ولا نفكّر في واجبنا أو حقّهم علينا .. نفكّر في الآخرين أنّ عليهم أن يثقوا بنا ، ويعطونا المكانة اللائقة بنا ، ولا نُفكّر في واجبنا .. أنّ علينا أن نرتفع لننتزعَ ثقةَ الآخرين بنا ، فالثقةُ طمأنينة قلب ، وارتياح نفس ، لا تفرض

بقانون القوّة .. وإنما تملك مودّة القلب ، ومنطق الروح ، وإخلاص النصح ..

إنّنا نغفل عن أنّ البطانةَ الصالحةَ لسليمان بن عبد الملك ، التي مثّلها ذلك الرجلُ الناصحُ الأمينُ ، العَلَمُ المغمورُ ، رجاءُ بن حَيوة [1] ، كان من ورائها استخلاف عمر بن عبد العزيز رحمه الله ، وما كان على يديه من نفع عظيم لأمّة الإسلام إلى يوم الدين .

إنّ الرجل الكفء ليس بحاجة أن يشير إلى نفسه .. إنّ الدنيا كلّها تشير إليه بالبنان ، أن يُختار ، ويكون في موضع صنع القرار ، أو التأثير في القرار .. إنّه يفرض نفسه ، وينتزع الثقة حتّى من أعدائه ، على رغم أساليب الزيف والدجل ، وطمس الحقائق وتغييبها ، فهل لنا أن نفقه هذه الحقيقة المطّردة ، فنعمل على إعداد أنفسنا ، وإعداد

---

[1] (؟) ورجاء بن حيوة هو أبو المقدام شيخ أهل الشام في عصره ، كان من العلماء الفصحاء ، والوعّاظ النبلاء ، لازم عمر بن عبد العزيز في إمارته وخلافته ، انظر الأعلام 3/17ـ ، وحلية الأولياء 5/170ـ ، وتاريخ الخلفاء للسيوطيّ /226/ .

الرجـــــال الأكفـــــاء ، أو التـــــأثير في ميـــــولهم واتّجاهاتهم .؟!

ونحن لا ننكر ما للدعاية الكاذبـة من تـأثير في تزوير الحقائق ، وترويج الأباطيل ، ووأد العبقريّات ، وصـنع الأبطـال من الأقـزام .. ممّـا يضـاعف أعبـاء التحدّي ، ويوجب المزيـد من الجـدّ واليقظـة .. وأن نعلم أنّ سنّة المدافعة ماضية إلى يوم الدين ..

إنّ الإنسان أحوج ما يكون إلى مراجعة نفســه بين الحين والآخر .. والمصارحة بمثل هذه الأحاديث ، لأنّ دوّامة اللهاث مع اللاهـثين الغـارقين في لجّـة الحياة في البحـر الملح .. لا تـدع الإنسـان ينسـحب قليلاً من بين الجموع ، ويتفيّأ ظلال شجرة بعيـداً عن الناس ، يناجي نفسه وتناجيه .. أو يصفو وقته وقلبـه ليناجيه أخ في الله مخلص ، صادق في نصحه ، مثــل صدقه مع نفسه أو أكثر ..

إنّ كثــيراً من النــاس عنــدما ينظــرون بعين البصر ، يرون الحياة بهيجة جميلة ، فتّانـة سـاحرة ، فيهيمـون بهـا حبّـاً ، ويلهثـون وراءهـا رَغَبـاً ورهبـاً ، وربّما رآها آخرون بعين البصر أيضـاً كئيبـةً مظلمـة ،

مُشـقية محزنـة .. وذلك على حسـب حـال الإنسـان وظروفه وتقلّباته ..

وإذا نظرنا إليها بعين البصيرة رأينـا أنّنـا في مغارة مُعتمة ظلماء ، زواياها أشبه بـدائرة .. قـد أحاط بنـا الظلام من كـلّ جـانب .. إذا أخـرج أحـدنا يده لم يكد يراها .. وحولنا في كلّ زاوية من زواياها نافذة مغلقة .. وكلّما فتحنا نافـذة تبـدّى لنـا منهـا نـور يشـعّ ، فيضـيء زاويـة من زوايـا مغارتنـا .. فلنستفتح بعض هــذه النوافــذ ، واحــدة تلــو الأخــرى .. وإنّ صاحب الهمّـة العليّـة ليسـتفتح النوافـذ كلّهـا أمامـه .. ولنعلم أنّ الفتح بيد الفتّاح سبحانه : ([illegible] ٻ ٻ ٻ ٻ پ) الفتح ، و (ۋ ۋ [illegible] ۋ ۋ [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] ې ې ې ې ى ى [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible]) فاطر .

وقبـل أن أدلـف بكم أيّهـا الأحبّة إلى غمـرات الحديث أحبّ أن أمهّد ببعض المقدّمات ، التي تهيّئ النفوس لمعانيه وإشَاراتِه ..

* بين العبوديّة والعبادة :

كثيراً ما تـتردّد على ألسـنتنا كلمـة : العبوديّة ، وكلمة : العبادة ، وهما بحقّ مفتاح شخصيّة الإنسان ، وشعار حياته ودثارها ، ومفرق الطريق بين إنسان الدنيا ، وإنسان الآخـرة .. ولابـدّ لنـا من وقفـة عنـد هاتين الكلمتين نتبيّن بها بعض الحقائق ..

قـال في لسـان العـرب : " عَبَـدَ اللـه يعبُـدُه عِبادة ومعبداً ومعبَدةً تألّه له ، ورجل عابد من قــوم عبَدةٍ وعُبُدٍ وعُبّد وعبّاد ، والتعبّد التنسّـك ، والعبـادة الطاعة أو الطاعة مع الخضوع .. ويقال : فلان عبـدٌ بيّن العبـــودة والعبوديّـــة والعبديّـــة ، **وأصـــل العبوديّة : الخضوع مع التذلّل .**

وقال في المعجم الوسـيط : " عَبَـدَ يعبُـد اللـه عبادة وعبوديّة : انقاد لـه وخضـع وذلّ .. والعبـادة : الخضوع للإله على وجه التعظيم ، وعبُد يَعبُد عُبـوداً وعُبوديّة : مُلِكَ هو وآباؤه مِن قبل " .

وقـــال الـــراغب الأصـــفهانيّ في المفـــردات : " العبوديّة إظهار التذلّل ، والعبادة أبلغ منهَـا لأنّهـا غايـة

التذلّل ، ولا يستحقّها إلاّ من له غاية الإفضال ، وهـو الله تعالى " .

وأرى أنّ هـذا التفريـق لا يعين عليـه المعـنى اللغويّ المنقول آنفاً ، إذ يشير إلى تقارب للمعنيين ، ولكنّ زيـادة المبـنى في " العبوديّـة " تـرجّح زيـادة المعـنى على العبـادة ، وهـو مـا اتّجهت إليـه في المعنى الاصطلاحيّ ، والله تعالى أعلم .

ـ وأمّا من حيث المعنى الاصـطلاحيّ للعبـادة : فقـد عـرّف الإمـام ابن تيميـة رحمـه اللـه العبـادة تعريفاً جامعاً بقوله : " **العبادة : هي اسم جامع لكـلّ مـا يحبّـه اللـه ويرضـاه ، من الأقـوال والأعمـال الباطنـة والظـاهرة ، فالصـلاة ، والزكاة ، والصيام ، والحجّ ، وصدق الحـديث ، وأداء الأمانة ، وبرّ الوالدين ، وصلة الأرحام ، والوفــاء بــالعهود ، والأمــر بــالمعروف ، والنهي عن المنكـــر ، والجهـــاد للكفّـــار والمنــافقين ، والإحســان للجــار واليــتيم ، والمسـكين وابن السـبيل ، والمملـوك من الآدميّين والبهــائم ، والــدعاء ، والــذكر ،**

والقـــراءة ، وأمثـــال ذلـــك من العبـــادة .. وكـذلك حبّ اللـه ورسـوله ، وخشـية اللـه والإنابة إليـه ، وإخلاص الـدين لـه ، والصـبر لحكمه ، والشكر لنعمـه ، والرضـا بقضـائه ، والتوكّل عليه ، والرجاء لرحمتـه ، والخـوف من عذابـه ، وأمثـال ذلـك هي من العبـادة لله .. " [1] .

وهـذا التعريـف على وجاهتـه وشـموله يتنـاول مظاهر العبـادة ومفـردات أعمالهـا ، ولا يعـرّج على وصف حقيقتها ، وتحديد معالمها .

وأمّا تعريف العبوديّة من الوجهة النفسـيّة : فهي شـعور بالعبديّة حاضر ، وتلـذّذ في الخدمة ظاهر ، والجمع بين ألوان من العبادة بما يناسب كـلّ وقتٍ ويلائمه ، واسـتغراق للـوقت والجهد فيما يحبّ المعبود ويرضى .

فـــالفرقُ إذن بين العبوديّـــة والعبـــادة : أنّ العبوديّـةَ تعبّـر عن منهجٍ شُـموليّ ، والعبـادة جـزء خاصّ من هذا المنهج ، أو هي أهمّ مفرداته .

---

[1] انظر كتاب العبوديّة ص/28/ .

وهنــاك نــوع من العبوديّة أحبّ أن أســلّط الضـوء عليـه في هـذا الحـديث ، إنّـه : " العبوديّة الحركيّة " .. فمــــاذا أقصد بالعبوديّة الحركيّة .؟ إنّه مصطلح قد يرفضه بعض الناس ، لأنّه لم يطـرق ســمعه من قبل .. وأحبّ أن ألتمسَ لــه في هــذا المقام أصلاً ودليلاً :

فلـو نظرنـا في حيـاة النـبيّ ، وهـو الأسـوة العظمى للمؤمنين ، لرأينـا أنّـه كـان يتهجّـد بالليـل .. ويصلّي بالناس الفجر .. ثمّ يُمضِـي الـوقت بين علم وتعليم ، وتفقّد لأصحابه ، وحلّ لمشكلاتهم ، ولقـاء مـع الوفود ، ودعوة إلى الله تعالى ، وجهاد في سبيله .. ومؤانســة لأهلــه وملاطفــة ، ومداعبــة للأطفــال هادفة ، وخدمة خاصّة لنفسـه ، ولأهـل بيتـه .. وهـو في جميع ذلك لا يفتر عن ذكر الله تعالى ولا يملّ ..

فالعبوديّة الحركيّة تجمع بين التمسّك بالحقائق الإيمانيّــة والنشــاط الحــركيّ ، الــذي يعطي لكــلّ موقف حقّه ، ولكلّ وقت ما يناسبه ، وممّا يعبّـر عن ذلك ويشير إليه مـا جـاء في الحـديث الشـريف عَنْ أَبِي هُرَيْــرَةَ عَنِ النَّبِيِّ قَــالَ : (**تَعِسَ عَبْــدُ**

الـدِّينَارِ وَعَبْـدُ الـدِّرْهَمِ وَعَبْـدُ الخَمِيصَـةِ ، إِنْ أُعْطِيَ رَضِـيَ ، وَإِنْ لَمْ يُعْـطَ سَـخِطَ ، تَعِسَ وَانْتَكَسَ ، وَإِذَا شِيـكَ فَلا انْتَقَشَ ، طُـوبَى لِعَبْـدٍ آخِـذٍ بِعِنَـانِ فَرَسِـهِ فِي سَـبِيلِ اللـهِ ، أَشْعَثَ رَأْسُهُ ، مُغْبَرَّةٍ قَدَمَاهُ ، إِنْ كَـانَ فِي الحِرَاسَةِ كَـانَ فِي الحِرَاسَـةِ ، وَإِنْ كَـانَ فِي السَّـاقَةِ كَـانَ فِي السَّـاقَةِ ، إِنِ اسْـتَأْذَنَ لَمْ يُؤْذَنْ لَهُ ، وَإِنْ شَفَعَ لَمْ يُشَفَّعْ) [1] .

وفي حياة الخليفة الراشـد عمر : أنّـه كـان يعسّ في الليـل .. ويخـدم بنفسـه الأمّـة كبيرهـا وصغيرها .. ونساءها وأطفالها .. بـل حتّى بهائمهـا : إذ يهنأ البعير الأجرب من إبل الصـدقة ، ويرعاهـا .. ويخرج إليها في شدّة القَيظ يتفقّـدها .. ويـراقب بدقّـة سمة التوازن في حياة الأمّـة .. فيطارد أهـل السـوق إلى المسجد ، وأهل المسـجد إلى السـوقِ .. وكـان

---

[1] ـ رواه البخـاري في كتـاب الجهـاد والسـير بـرقم / 2673/ ، وَقَـالَ : (فَتَعْسـاً) كَأَنَّهُ يَقُـولُ : فَأَتْعَسَـهُمُ اللـهُ و(طُوبَى) فُعْلَى مِنْ كُلِّ شَيْءٍ طَيِّبٍ ، وَهِيَ يَاءٌ حُـوِّلَتْ إِلَى الوَاوِ ، وَهِيَ مِنْ يَطِيبُ .

يوجّه المتأخّرين بعد الحجّ ، أن يسرعوا بالعودة إلى بلادهم : يـا أهـلَ الشـام شـامَكم .! ويـا أهـل اليمن يمنَكم .! ويا أهل العراق عرَاقَكم .!

يقول الأستاذ غالب عبد الكافي القرشيّ في كتابه : " أوّليّـات الفـاروق السياسـيّة " : " **لقد كـان عهـد الفـــاروق □ أخصـــب العهـــود الإســـلاميّة على الإطلاق ؛ سياسةً واقتصاداً ، وتنظيمـاً لشـئون الدولة ، ولقد اتّسعت الدولة الإسلاميّة اتّسـاعاً لم يعـرف من قبـل ، وجـدّت أمـور مـع هـذا الاتّساع ، وتعدّدت المشـكلات ، وكـان الفـاروق نسـيج وحـده ، وَسِـعَت سياسـته كـلّ مـا جـدّ وتطلّبته حياة النـاس ، فـابتكر أشـياء لسياسـة النـاس ورعـايتهم ، لم يسـبق إليهـا من قبـل ، منها هذه الأوّليّات ، وهي دروس لا يستغني عنها حاكم دولة ، ولا قائد جيش ، ولا قاضٍ ، ولا فقيه ، ولا مشتغل بالسياسة وتنظيم المال** " .

ويقول أبو الدرداء : " **كم من سنّة راشدة مهديّة قد سنّها عمر في أمّة محمّد ** " [1] .

ولكنّ الحقيقة التي يُهمّنا تقريرها في هذه المناسبة أنّ ما فعله **الفاروق** إنّما فعله بمقتضى عبوديّته لله تعالى ، واستلهاماً من عظيم تقواه لله ، وشعوره العميق بالمسئوليّة ، وهذا ما جعل عمله متميّزاً نوعاً وعمقاً وأثراً .

سأل الإمام الزاهد القدوة ، عبد الله بن المبارك رحمه الله ، إخوانه وكانوا معه في الغزو : تعلمونَ عملاً أفضل ممّا نحن فيه .؟ قالوا : مَا نعلم ، قال : أنا أعلم ، قالوا : فما هو .؟ قال : " **رجل متعفّف ذو عائلة ، قام مِن الليل ، فنظر إلى صبيانه نياماً منكشفين ، فسترهم ، وغطّاهم بثوبه ، فعمله أفضل ممّا نحن فيه** " [2] .

---

[1] (?) نقلاً عن كتاب : " القيادة والتغيير " للدكتور بشير شكيب جابري ص/181/ .

[2] (?) إحياء علوم الدين 2/32/ ، وأحسب أنّه قال لهم هذا القول ليبعد عنهم الاغترار بما هم فيه من الرباط في سبيل الله ، فكأنّه يقول لهم : لست وحدك تعمل لدين الله .. وما أكثر العاملين سواك ! وربّما نال الرجل برعاية أهل أجر الرباط والجهاد في سبيل الله تعالى .. وربّما كان ما تستصغر من العمل أعظم أجراً ، وأرفع قدراً عند الله من

والنماذج على ذلك من حياة الصـحابة وسـلف هذه الأمّة الصالح أكثر من أن تحصى ..

ثمّ تحـوّل كثـير من أهـل الخـير إلى شخصـيّة ذات نمطٍ واحدٍ ، وبعدٍ واحدٍ تضـخّمه ، ولا تتعـدّاه .. بـل تنتقص مـا عـداه ، وتقلّـل من جـدواه .. ثمّ اجتُـزئت تلـك الشخصـيّةِ في جزئهـا .. ثمّ اجـتزئ الجزء إلى جُزَيءٍ ، وتسلّطت عليه الأهـواء .. وقـدّم ذلك السلوك القاصر للناس على أنّه المنهج الأمثل ، والسلوك القدوة .. فماذا ننتظر بعد ذلك.؟!

فـالغنيّ المحسـن لا يـرى الإحسـان إلاّ في إطعام الطعام ، وإغاثة الأرامل والأيتـام ، ولـو دعي إلى أنـواع أخـرى من وجوه الخـير والـبرّ ، ونشـر الدعوة ، ونفع الأمّة لما ساهم فيها بشيء .. وربّمـا وقع إحسانه بغير محلّه ، وقوفاً مع هواه وقصـور رأيه ..

وطـالب العلم النبيـه تراه يـألف نمطـاً من الدعوة والعمل ، ولا يتعدّاه .. ولو دعي إلى مـا هـو أهمّ منه وأولى ، وأكثر نفعاً للأمّـة ، وأعظم أجـراً ..

عملك ، فاجتهد ، ولا تقف عند المظاهر .

تراه يعتذر ويتأبّى .. وربّما قضى عمره في علم لا ينفع ، أو فيما يفرّق الأمّة ، ويزيد مآسيها ..

وربّما اختار بعض المتصدّين للدعوة وإرشاد الناس منهجاً من نوافل الأذكار وفضائل الأعمال ، والناس أحوج ما يكونون إلى إحياء فرائض الإسلام ، وتثبيت أركانه ..

ومشكلة الأمّة في أحد أهمّ وجوهها : عبادة بغير حركة ، أو حركة بغير عبادة .. أو حركة يلتبس بها هوى النفس والانتصار لها بالعبادة ، فتتعطّل جوانب مهمّة من الدين ، ولا يكون للعمل بركة ولا أثر .. وربّما عاد على الأمّة بأبلغ الشرّ والضرر ..

والعبوديّة الحركيّة قوامها رحمة الخَلْق ونفعهم ، والشفقة عليهم والرفق بهم ، والدعوة إلى الله تعالى والنصح لعباده ، وهي أعظم حاجات الأمّة ، وأحبّ الأعمال إلى الله تعالى ، وهي من أهمّ فروض الكفاية ، التي قصّرت بها الأمّة ، فآل أمرها إلى ما هي عليه من شتات وتخلّف .

ولنا أن نتســاءل : بم فضــلنا الســلف .؟ والجـواب : أنّ سـلف هـذه الأمّـة الصـالح فضـلنا بنوع الأعمال لا بكمّهـا ، بالأعمال الـتي تقـع أحسـن مواقعها ، لا بالانصراف إلى كثرَة الأعمال ، وربّما كانت أسـهل على النفـوس وأحبّ إليهـا ، وغـير ذلـك أرشد ، وإلى الله تعالى أحبّ ، وعنده أسعد .

وهذا لا يعني أنّهم لم تكن في أعمالهم كـثرة ، ولكنّهـا كـانت كـثرة نوعيّـة متميّـزة ، ومن ثمّ فهي مثمرة ، وبركاتها متكاثرة ..

ـ **معادلات عرائس ، تبحث عن أكفائها ، ولا يفهمها إلاّ** كرام **الرجال : (..**

ﮖ ﮗ ﮘ ﮙ ﮚ ﮛ ﮜ) الطلاق .

(.. □ □ □) القصص .

(.. □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □) يوسف .

(ﭽ ﭾ ﭿ ﮀ ﮁ ﮂ ﮃ ﮄ ﮅ ﮆ ﮇ ﮈ ﮉ ﮊ ﮋ ﮌ ﮍ ﮎ ﮏ ﮐ ﮑ ﮒ ﮓ ﮔ) يوسف .

(□ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □) الروم .

(.. ﮬ ﮫ ﮪ ﮩ .. ﯝ) آل عمران .

ـ مقــولات فاســدة يــربّى عليها أبناؤنا ، وكأنّها نصــوص منزّلة مقدّسة ، ممّــا يــدلّ على الخلل في هذه النوافذ كلّها :

" **إذا لم تكن ذئباً أكلتك الذئاب** " : فهـل أصبحت الحياةُ شريعة غاب ، وتهارش ذئاب .؟!

" **اتّــقِ شــرّ من أحســنت إليه** " : إذن لا تفعل الخـير لئلا يصـيبك الشـرّ .. وهـو ليس بحـديث كمــا يظنّ بعض النــاس ، بــل ينــاقض النصــوص القطعيّة ، ومفاهيم الأحاديث الصحيحة ..

" ضع رأسـك بين الـرءوس ، وقـل : يـا قطّـاع الرءوس " : إنّه دعوة صريحة إلى أن يكون الإنسان إمّعة ..

ـ المعــــــادلات الإيمانِيّة لا تلتقي مع المقولات الفاسدة :

(.. ﯓ ﯔ ﯕ ﯖ ﯗ) الفرقان .

(.. ﮐ ﮑ ﮒ ﮓ ﮔ ﮕ ﮖ ﮗ ﮘ ﮙ ﮚ ﮛ)
فصّلت .

(.. ﭽ ﭾ ﭿ ﮀ) الأعراف .

(.. ﯯ ﯰ ﯱ ﯲ ﯳ ﯴ ﯵ ﯶ ﯷ ﯸ ﯹ ﯺ) الشورى .

* من أهمّ أركـــــــان العبوديّة الحركيّة وخصائصها :

1 ـ النظرة الشموليّة لِلإسلام .

2 ـ الفقه الدقيق بالواقع ومتطلّباته .

3 ـ التجرّد عَن الهوى وشوائب القصد .

4 ـ إعطاء كلّ عمل حقّه ووزنه .

* ومن مظـــاهر إبـــداع الســـلف في فهم العبوديّة الحركيّة ، وترجمتها العمليّة :

1 ـ النظر الدقيق في تقدير أولويّات الـوقت ، وما يسمّونه : (واجب الوقت) : ومن أمثلة ذلك :

أ ـ الحـرص على جمـع كلمـة الأمّـة فهي أعلى مصـلحةً ، وأرجح سـبيلاً من أيّ مصـلحة أخرى .

ب ـ تَرجيح النفع العامّ على النفع الخاصّ .

ج ـــ درء المفاســـد مقـــدّم على جلب المصالح .

2 ـــ الجمـع بين العبـادة الشـاملة ، والعبـادة بمفهومهـا الخـاصّ ، فـالمفهوم الشـامل للعبَـادة لا يتعـارض مـع خصوصـيّة العبـادة بمفهومهـا الخـاصّ ومزيّتها .

3 ـ الاجتهاد في سـدّ النقص ، لا في التنـافس على الثغـرات المسـدودة ، وهـو من مظـاهر فقـه السـلف وإبــداعهم ، وانطلاقهم من مصــالح الدين والأمّة ، وتجرّدهم عن الأهواء وحظوظ النفس .

ـ إنّ رفيع الهمّة في سياحة أبداً ، إنّه حـرّ يعـتزّ بحرّيّته ، على قدر مـا يسـمو بعبوديّتـه ، ينتفـع بكـلّ الرجـال ، ولا تقـف بـه همّتـه عنـد حـال ، ولا يقصـر نظره على أحد منهم مهما عظم .. حتّى يكون بين يـدي المعصوم ، يأخذ عنـه ، ويصـدر عن إشـارته .. فهـو مرآة القـرآن الكـريم ، ومعـدن أسـراره وأنـواره .. يقـف أمـام القـرآن متـدبّراً ، ليجـد فيـه جـواب كـلّ مسألة ، وحلّ كلّ معضلة ..

يقول الفضيل بن عياضٍ رحمه الله : " **والله ما صدق في عبوديّته مَن لأحدٍ من المخلوقين عليه ربّانيّة** " [1] .

وقد كان من حكمة السلف : (**الحريّة حريّة القلب ، والعبوديّة عبوديّة القلب) .**

وما أبلغ كلمة الإمام ابن تيمية رحمه الله ! وما أعظمها من حكمة : (**المحبوس من حُبس قلبه عن ربه ، والمأسور من أسره هواه**) .

ويقول ابن دريد في مقصورته /ص 116/ :

وَآفةُ العَقل الهوى فمَن علا على هواه عقلُه فقد نجا

إنّ الرقيق الأسير أسير شهوته الأثيمة ، ولو عاش في رحاب القصر الأبيض وحماية القوّة الحصينة .. **والحرّ حرّ** الروح والقلب ، ولو أنزلوه من رحاب القصور إلى ظلمات الزنازين ، ودفنوه في زوايا النسيان .. إنّه كيوسف الصدّيق عليه السلام ، الذي آثر حريّة قلبه وروحه ، على شهوة نفسه ، ورقّ قلبه ..

---

[1] ـ مجموع فتاوى الإمام ابن تيمية /10/599 .

لأنّ القلب ملك الجوارح ، وهو المضـغة الـتي إذا صلحت ، صلح الجسـد كلّـه ، وإذا فسـدت فسـد الجسد كلّه ، كما قال المصطفى صلوات الله عليـه وسلامه .

وإن حريّــة القلب الحقّــة ، هي في تحقّقــه بالعبوديّة الخالصة لله تبارك وتعالى ، في كلّ حركة من حركات حياتـه ، إيمانـاً باللـه تعـالى واحتسـاباً ، وطاعـة واتّباعـاً ، وهي لا تكـون إلاّ في التطهّـر من عبوديّة ما سواه واسترقاقه .. وقد قال الشاعر :

قيّد الحرّ نفسه عن هواه وأبى
في الحياة قيد سواه
وترى العبد راضياً كل قيد غير
تقييد نفسه عن هواه

وإن أشدّ ما يبتلى به القلب ، أن يكـون أسـير الأهـواء والشـهوات ، أو الوسـاوس والأوهـام ، أو الأعـراف والعـادات ، أو التبعيّـة العميـاء للكـبراء والزعماء ، التي تسـتجرّ الإنسـان إلى طـاعتهم في معصـية اللـه ، وتقـود إلى ممـالأتهم على البغي في الأرض ، والعدوان على عباد الله ، فيصـبح الإنسـان

لا وعي لـه ولا علم ، ولا إرادة ولا عـزم .. إذ يكـون أداة من الأدوات في أيـــديهم ، كالآلـــة الصـــمّاء ، يصرّفها أحدهم كما يشاء ..

وفي حديث السلف عن العبوديّة كلمات كثـيرة تـــبيّن حقائقهـــا وأبعادهـــا ، فمن ذلـــك قـــول بعض الصالحين : " **أُخرُج من أوصـاف بشـريّتك عن كلّ وصف منـاقض لعبوديّتك ، لتكـونَ لنـداء الحقّ مجيباً ، ومن حضرته قريباً** " .

وقولـــه : " **تحقّـــق بأوصـــافك يُمِـــدَّكَ بأوصافه ؛ تحقّق بذلّك يُمِـدَّكَ بعـزّه ، تحقّـق بعجزك يُمِدَّكَ بقدرته ، تحقّق بضعفك يُمِـدَّكَ بحوله وقوّتـه ، تحقّـق بفقـركَ يُمِـدَّكَ بغنـاه عمّن سواه** " .

وقولــه :" **كن بأوصــاف ربوبيّتــه متعلّقــاً ، وبأوصاف عبوديّتك متحقّقاً** ".

وقوله : " **مطلب العارفين من اللـه الصـدق في العبوديّة ، والقيام بحقّ الربوبيّة** " .

وقوله : " **ما أحببت شيئاً إلاّ كنت له عبداً ، وهو لا يحبّ أن تكون عبداً لِغيرِه** " .

ولقد كان تحريـر البشـريّة من ربقـة العبوديّـة لغير الله تعالى من أهمّ أهـداف إخـراج هـذه الأمّـة المنقـذة ، لتكـون أمّـة وسـطاً ، خـير أمّـة أخـرجت للنــاس ، تقــوم بحــقّ الريــادة للأمم ، والقيــادة والشهادة : (ٺ ٻ ٻ ټ ٽ ٽ ٿ ٿ ٹ ٹ ڤ .. ڃ) آل عمران .

ولقـد عبّـر ربعيّ بن عـامر رحمـه اللـه ، عن فحـوى هـذه الرسـالة المنقـذة ، وأثرهـا في حيـاة الأمم والشــعوب ، عنــدما أجــاب رســتم القائــد الفارسيّ عن سؤاله : ما الذي جاء بكم .؟ فقال لـه ، وكان الجواب حاضراً في فكره وشعوره : " **اللـه ابتعثنا لنخرج العباد ، من عبـادة العبـاد إلى عبـادة اللـه وحـده ، ومن ضـيق الـدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة ، ومن جور الأديـان إلى عدل الإسلام** " .. فكان الإنقاذ من العبوديّـة لغـير الله أولَ الأهداف لإخراج هذه الأمّـة المنقـذة ، أمّـة الدعوة والشهادة والريادة .

وممّا زادني شرفاً وتيهاً وكدت بأخمصي أطأ الثريا

دخولي تحت قولك يا عبادي وأن صيّرت أحمد لي نبيّا

ومن ثمّ كانت معاملة السلف للرقيق ، وقد تواضعت كل أمم الأرض آنذاك على إقراره ، والتعامل بموجبه ، تنطلق من هذا الهدف الدعويّ الحيويّ ، بعدما كفل له الإسلام حقوق الآدميّة والكرامة الإنسانيّة ، كأرفع ما تكون ، وأجلّ ما عُرف ، مما لا يخفى أمره على الكبير والصغير في هذا الدين .. في الوقت الذي كانت أمم الأرض كلّها تسقط آدميّة الرقيق وتهدرها ، ولا تقيم أيّ اعتبار لإنسانيّته وكرامته ، ولا تعترف بحقّ من حقوقه .. وتنظر إلى المرأة وهي أمّ حرّة ، وزوجة وبنت ، وعمّة وأخت .. تنظر إليها أسوأ من نظرتها إلى المتاع التافه ، وتعدّ قدومها إلى الحياة من الخزي الفاضح .! ولا منجى من عارها إلاّ بوأدها .! صغيرة كانت أو كبيرة ..

وكان طلب الرقيق للحريّة ـ وهو عبد مشترى بالمال ـ لا يردّ ، ولا يتجاوز ، كما كان تحريره باباً من أعظم أبواب البرّ والإحسان ، والتقرّب إلى الله تعالى ، ومصرفاً من مصارف الزكاة المقرّرة .. وكان

دخولـه في الإســلام مــدخلاً ميسّراً إلى تحريــره من الرقّ ، وردّ اعتباره الاجتماعيّ والأدبيّ .

وقــديماً أدرك أولــو الألبــاب الحكمــاء ، وذوو الفكر الحرّ النيّر ، قيمة **الحريّة الحقيقيّـة الـتي يريدها الإسلام** للفــرد والجماعــة ، وندرة أحــرار القلوب في الناس ، فقال قائلهم :

سألت الناس عن خلٍّ وفيٍّ فقالوا : ما إلى هذا سبيلُ

تمسّك إن ظفرتَ بذيلِ حُرٍّ فإنّ الحُرّ في الدنيا قليلُ

فلن يحظى الإنســان بالخــلّ الــوفيّ ، مــا لم يحــظ بالعاقــل الحــرّ ، الــذي لا تســترقّه الأهــواء والشــهوات ، ولا تأســره التقاليــد والعــادات ، ولا يعظّم أحداً من البشر إلاّ على قدر خضوعه للحــقّ ، ووقوفه عنده ، ودفاعه عنه ..

وأنّى لك أن تجد ذلك إلاّ في الأفذاذ من النــاس ، الذين لا يكاد يحظى بهم المرء إلاّ على شحّ من الــدهر شحيح ، وغربة عن حياة الناس وجفاء .؟!

وإلى ذلــك يشير الحديث عَنْ عَبْــدِ الله بْنِ عُمَرَ رَضِيَ الله عَنْهُمَا قَالَ : سَمِعْتُ رَسُــولَ الله يَقُولُ : (إِنَّمَا النَّاسُ كَالإِبِـلِ المِائَةِ لَا تَكَـادُ تَجِـدُ فِيهَا رَاحِلَةً) [1] .

والعبوديّة الحركيّة تفرض على المـؤمن الموفّـق أمــوراً هي على درجــةٍ كبــيرة من الأهمّيّة :

ـ إنّهـا تفـرض عليْـهِ الـوزن النـوعيّ لِلأعمـال ، على حســب تقـدير الشــرع وحكمتــه ، فلا يزيـد ولا ينقص ، ولا يغالي ولا يفرّط .

ـ وتفرض عليه أن يضرب من كلّ غنيمةٍ بسَهم ، ويلجَ مــا اســتطاع من أبــوابِ الخــير والــبرّ ، فلا يرضـى لنفســه إلاّ أن يكـون محلّقـاً مـع المحلّقين ، سَابقاً أو مجلّياً .

ـ وتفرض عليه أن يأخذ بالعزائم في أغلب أحواله ، فلا يترخّص في دينه إلاّ حيث يحبّ الله مِنه الرخصة ، ولا يفتحُ لنفسه أبوابَ التأويلِ حيث لا

---

[1] ـ رواه البخاريّ في كتاب الرقاق بـاب رفـع الأمانـة بـرقم / 6133/ومسلم في كتاب فضائل الصحابة برقم /4620/ .

يسوغ شرعاً ولا يقبل .. وإلاّ يكن المؤمن كذلك فلا يطمع أن يكون في صفوف السابقين من صفوة العاملين ، وليَسَعه ما يسع العامّة .. ففي قاعدة الهرم العريضة متّسع للكَثيرين ..

والأخيار في كلّ جيل عامّة وخاصّة ، وخاصّة الخاصّة ؛ فللعامّة أحكام التيسير والرخص ، وللخاصّة الأخذ بالعزائم ، على وجه العموم ، وفي أكثر الأحوال ، وهي العزائم التي ترفع الهمم ، وتدني من المقاصد .. ولخاصّة الخاصّة الريادة والقيادة في أكثر الشؤون ، وهم السابقون : (.. ڃ ڄ ڄ ڇ ڃ ڃ ڃ ڃ ڇ) فاطر ، والفرق بينهم وبين الخاصّة ، كالفرق بين من يضع " الاستراتيجيّة " ، ومن ينفّذها .. و " المرء حيث يضع نفسه " .

وعجباً لمن لا يرتضون لأنفسهم إلاّ أن يكونوا من الخاصّة ، ثمّ تراهم يترخّصون في كلّ شأن ، وقد ترى بعض العامّة أرقى إيماناً منهم ، وأقوم سلوكاً ، وأصلح عملاً .!

وإنّ من صفات المؤمن الحــقّ ، والصــفوة من الخلق : قوّةً في دين ، وحزماً في لين ، وإيمانــاً في يقين ، وقصـــــداً في غـــــنى ، وتجمّلاً في فاقــــة ، وإحساناً في قـدرة ، وصـبراً في شـدّة ، لا تقصر بـه نيّته ، ولا تفتر عزيمته ، ولا يغلبه الغضب ، ولا تجمح به الحميّة ، ولا يستخفّه الحـــرص ، ولا يســـتهويه اللهـــو ، ينصر المظلوم ، ويرحم الضعيف ، لا يبخلُ ولا يبذّر ، ولا يسرف ولا يقتّر ، يغفر إذا ظُلم ، ويعفـو إذا قـدر ، يحلم عن السفيه ، ويصفح عن الجاهل ، نفسه منه في عناء ، والناس منه في رخـاء ، وهمّـه في كـلّ شـأن مرضـاة ربّه ..

أيّها الأخ الكريم .! أتريد أن تكون من الصفوة ، أو من خاصّة الخاصّة .! فماذا قدّمت لذلك .؟!

قَــد رَشَّــحُوكَ لأمــرٍ لَو فَطِنتَ لَــه فَاربَأ بِنَفسِكَ أن تَرعَى مَعَ الهَمَلِ

أما علمت أنّ سلعة اللـه غاليـة ، وأنّ الجنّـة لا تنال بالأماني .؟!

أين أنت من مكابدة الليل ، وظمأ الهواجر .؟!

أين أنت من الـدعوة إلى الخـير ونفـع الأمّـة ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر.؟!

أين أنت من أهـل الـبرّ والإحسـان ، والشـفقة على عباد الله .؟!

أين أنت من أهل الحبّ في اللـه ، والبغض في الله ، والغيرة على حرمات الله ، والمراغمة لأعـداء الله .؟!

أين أنت من أولئـك الجنـود الأتقيـاء الأخفيـاء ، الذين لا يعرفهم مأثم ، ولا يفـوتهم مغنم .؟! الـذين قَالَ اللهُ تعالى فيهم : (.. □ □.. ڀ) المائدة .

أين أنت من المسارعين في الخيرات ، والـذين هم لها سابقون .؟!

أين أنت من قــول بعض الســلف : " كيــف يشرق قلب صـور الأكـوان منطبعـة في مرآتـه ؟ أم كيف يرحل إلى الله ، وهو مكبّل بشهواته ؟ أم كيف يطمـع أن يـدخل حضـرةَ اللـه ، وهـو لم يتطهّـر من جنابـة غفلاتـه ؟ أم كيـف يرجـو أن يفهمَ دقـائق الأسرار ، وهو لم يتب من هَفواته ؟ " .. لا ترحل من كون إلى كون ، فتكون كحِمارِ الرحى ، يسير والذي ارتحل إليهِ هـو الذي ارتَحـلَ منـه ، ولكن ارحـل من الأكوان إلى المكوّنِ : (□ □ □ □ □) النجم . وانظر إلى قولِه □ : (فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُـهُ إِلَى الله وَرَسُـولِهِ

فَهِجْرَتُهُ إِلَى اللهِ وَرَسُـولِهِ وَمَنْ كَـانَتْ هِجْرَتُـهُ لِـدُنْيَا يُصِـيبُهَا أَوْ امْـرَأَةٍ يَتَزَوَّجُهَـا فَهِجْرَتُـهُ إِلَى مَـا هَـاجَرَ إِلَيْهِ) . فافهم قوله عليـه الصـلاة والسـلام ، وتأمّـل هذا الأمر إن كنت ذا فهم . والسلام " .

أين أنت من أَحِبَّاءِ الله .؟! الذين وصفهم أحد دعاة الإسلام بقوله : " إنّ لله عباداً قَطعُوا عَلائِقَ الشهواتِ ، وأسرَجُوا مَراكِبَ الجِدِّ بِصِدقِ العَزَماتِ ، وَامتَطَوا جِيادَ الأمل ، واتَّجهُوا إلى الله عَلى وَجَلٍ ، وَتَزوّدُوا إليه بِصَالحِ العَمَلِ ، مَعَ إخلاصِ النِّيَّةِ ، وَتوسَّلُوا إليهِ بِصَفاءِ القَلبِ ، وَصِدقِ الطَّوِيّةِ ، فَمَرُّوا بِالخُضرةِ الفَاتِنةِ مُسَبِّحينَ ، وَبِالخَطبِ اللاهِبِ مُستَعِيذينَ ، وَلم يَعبَؤُوا بِالعَقَباتِ ، وَلم يَلتَفِتُوا إلى المُغرياتِ ، قَد صَانُوا وُجُوهَهُم عَنِ الابتِذالِ ، وَطَهّرُوا أقدامَهُم مِنَ الأوحَالِ ، استَعانُوا بالله عَلى مَشَقّةِ الطَّريقِ فَذَلّلَ لهُم صِعابَه ، وَعَلى بُعدِ المَدَى فَلَملَمَ لهُم رِحَابَه ، فَلَمّا اجتَازُوا الصِّعَابَ ، سَأَلُوا اللهَ فَفَتَحَ لهُم بَابَه ، فَلَمّا دَخَلُوهُ استَضَافُوهُ فَقَرّبَهُم ، وَرَفَعَ دُونَهم حِجَابَه ، فَلَمّا

استَطابُوا المُقامَ بَعدَ طُولِ السُّرَى قَالُوا : (.. □ □
□□□□□□□□□□□□□□□□□) الزُّمَر .
أُولئِكَ أَحِبَّاءُ الله ، صَدَقُوهُ العَهدَ فَصَدَقَهُم الوَعدَ ، وَمَحَّضُوهُ الحُبَّ فَمَنَحَهُمُ القُربَ " [1] .

وعندما نتحدّث عن العبوديّة لله تعالى ، الــتي هي شرف الإنسان وسعادته ، وعزّته وكرامتــه لابــدّ أن نــذكر بالأســى والشــفقة ، والحــزن والألم حــال أولئك الذين رضوا بالحياة الدنيا ، ولم يريدوا سواها ، واســتبدلوا الخــبيث بــالطيّب ، وآثــروا درب الــذلّ والصــغار ، على ســبيل العــزّ والفخــار ، فتقلّبــوا في قيــود من ألــوان العبوديّــات لغــير اللــه ، وتاهوا في مجَاهل الوهم والسراب : (ﮛ ﮜ ﮝ ﮞ ﮟ ﮠ ﮡ ﮢ ﮣ ﮤ ﮥ □ □) يس ، (ﮓ ﮔ ﮕ ﮖ ﮗ ﮘ ﮙ ﮚ ﮛ ﮜ ﮝ ﮞ ﮟ ﮠ ﮡ ﮢ ﮣ ﮤ ﮥ □) الكهف .

فهــل لهــؤلاء أن يعــودوا إلى رشدهم قبــل أن تحــلّ بهم المثُلات ، وتحيــط بهم النــدامات ، ولات ساعة مندم .!

[1] (؟) ـ من كلام الداعيــة الإســلامي الكبــير المفكــر الــدكتور مصطفى السباعي يرحمه الله .

[illegible]

[illegible]

ولنقف الآن كما وعـــــدنا عند هـــــذه النوافذ ، ملتمسِـــــين العـــــون والفتح من الفتّاح :

1 ـ النافذة الأولى : **نافذة الإرادة** وسموّ الهمّة : فالإرادة باعث كلّ قصد ، ومبدأ كـلّ عمـلٍ ، ومثير كوامن الهمّة ، يقول الله تعالى : (ﭫ ﭬ ﭭ ﭮ ﭯ ﭰ ﭱ ﭲ ﭳ ﭴ ﭵ ﭶ ﭷ ﭸ ﭹ ﭺ) الإسراء ، ويقول سبحانه : (ﯛ ﯜ ﯝ ﯞ ﯟ ﯠ ﯡ ﯢ ﯣ . ﯤ ﯥ) الكهف ، ويقول ﷻ : (ﮖ ﮗ ﮘ ﮙ ﮚ ﮛ ﮜ ﮝ ﮞ ﮟ ﮠ ﮡ ﮢ ﮣ ﮤ ﮥ ﮦ ﮧ ﮨ ﮩ ﮪ ﮫ) البيّنة .

يقول الإمام ابن القيّم رحمه الله تعالى : " **علم السلوك مبنيٌّ على الإرادَة ، فهي أساسه ، ومجمع بنائه ، وهو مُشتَمِل عَلَى تفاصيل أحكام الإرادَة ، وهي حركة القلب ، كما أنّ علم الفقه مُشتَمِل عَلَى تفاصيل أحكام الجوارح " .**

فالفقيه ينظر في تلكَ الحركات منْ جهة موافقتها لأمر الشرع ونهيه ، وإذنه وكراهته ، ومتعلّقات ذلك ، والمريد ينظر في تلكَ الحركات منْ جهة كونها موصلة له إلى مُراده ، أو قاطعة عَنْه ، ومفسدةٌ لقلبه ، أو مصحّحة له " .

ومن مقدّماتها : الذهاب عن العادات بصحّة العلم ، مع صدق القصد ، وخلع كلّ شاغلٍ .. وهي مخالفة العادة [1] **.**

وقَالَ الدقّاقيّ رحمه الله : " الإرادَة لَوعة في الفؤاد ، لذعة في القلب ، غرام في الضمير ، انزعَاج في الباطن ، نيران تأَجّج في القلوب " .

وقال أبو عثمان الحيريّ رحمه الله : " من لم تصحّ إرادته ابتداء ، فإنّه لا يزيده مرورُ الأيّامِ عليهِ إلاّ إدباراً " .

فهل نحن أصحاب إرادة .؟ ومَاذا نُريد ؟ وهل نحن صادقون وجادّون فيما نريد ؟! وكيف نسعى إلى ما نريد ؟! وكيف نكسر صخرات العوائق التي

---

[1]() ـ تهذيب مدارج السالكين ص/441/ .

تقف في وجه إرادتنا .؟ وما أكثرها .! وهل نستطيع أن نجـرّد الإرادة عن العواطف الرعناء ، والرغبات الجامحة ، التي تكسر عزيمتها ، وتفسد نقاءها ، وتعكّر صفاءها .؟ إنّها أسئلة محوريّة تنتظر منّا الإجابة ! ويترتّب عليها ما يترتّب .. وما أكثرَ من يتجاوزها ، ولا يفكّر فيها !

والإرادة حمّالة أوجه ، تنوء بأمّهات الحقائق والمعاني .. فهي الصبر والثبات ، وهي الهمّة والعزيمة ، وهي النيّة الصادقة المخلصة ، وهي الولاء لله ورسوله ، وهي الحبّ في الله ، والبغض في الله ، وهي وضوح الهدف ، واستقامة السلوكِ ، وهي المحبّة والرغبَة ، فلا إرادة للإنسان بغير رغبة ومحبّة .. ومن أهمّ آثار الإرادة الصادقَة : التجرّد عن حظوظ النفس ، وبنيّات الهوى ..

ومن كلام بعض الصالحين : " إذا التبس عليك أمران ، فانظر أثقلهما على النفس فاتّبعه ، فإنّه لا يثقل عليها إلاّ ما كان حقّاً " .

" من علامة اتّباع الهوى المسارعة إلى نوافل الخيرات ، والتكاسل عن القيام بالواجبات " .

" تمكّن حلاوة الهــوى من القلب هــو الــداء العضال " .

وقد قسم الله تعالى عباده فـريقين بقولـه : (.. ﮒ ﮓ ﮔ ﮕ ﮖ ﮗ ﮘ ﮙ.. □) آل عمران ، وإنّما تعـرف إرادة الآخـرة بسـموّها وتجرّدهـا ، ورسـوْخها وتألّقها ، كما تقـول عائشـة رضـي اللـه عنهـا : " إنّ رسول الله ﷺ رفع له علم فشمّر إليه " .

* وقال الشاعر البحتريّ : نفسٌ تُضيءُ وهمّة تتوقّدُ

* ــ وشــتّان بين إرادة الــدنيا وإرادة الآخــرة : فالمســافة الفكريّـة والشـعوريّة بينهمـا لا تقـدّر ولا توصف .. إنّها في نفوس الكافرين وضـعفاء الإيمـان الغافلينَ بعيدة نائية ، تحــول بين الــدارين والإرادتين حجب كثيفــة ، حتّى يغــدو الحــقّ أشــبه بالباطــل ،

واليقين أشبه بالشكّ والوهم : (ـ ـ ـ) المعارج .

ـ وهي في نفـوس المؤمـنين الصـادقين قريبـة لاصقة ، والجمع بينهما أصل ميسـور ، كمـا جـاء في الحـديث الصـحيح : (الجَنَّةُ أَقْـرَبُ إِلَى أَحَـدِكُمْ مِنْ شِرَاكِ نَعْلِهِ ، وَالنَّارُ مِثْلُ ذَلِكَ) [1] ، إذ يعمل العمـل ظاهره للدنيا ، ويؤجر عليه لأنّه يبتغي به وجه اللـه .

وعندما تقف الدنيا عقبة في وجه الآخرة ، فمـا أيســـر التخلّي عنهـــا ونبـــذها عنـــد المؤمـــنين المحسنين ..

وهل ننسى موقف عمير بن الحِمام الأنصاريّ يـوم بـدر حين اسـتطال لحظـات كـان يأكـل فيهـا تمرات ، فقال : " **بخٍ بخٍ .! ما بيني وبين الجنّة إلاّ أن يقتلني هؤلاء** .؟! " ، ثمّ رمى ما كان بيده من تمرات .. وقاتل حتّى قتل ..

---

[1] رواه البخـاريّ في كتـاب الرقـاق عَنْ عَبْـدِ اللـهِ بـرقم / 6007/ ، وأحمــد في مســند المكــثرين بــرقم /3485و3728و 3998/ .

* ـ مفــرق الطريق : وعنــدما نتحــدّث عن الإرادة لابدّ أن نقف عند قول الله تعالى : (.. ﮒ ﮓ ﮔ ﮕ ﮖ ﮗ ﮘ ﮙ.. ﯦ) آل عمران ، ونسترشد به ..

وإنّ مفــرق الطريــق يتجلّى في شــتات إرادة الإنسان بين الدنيا والآخرة ، وضعف حكمة الإنســان عن الجمع بينهما .. ولكنّها مسألة محسـومة منتهيـة في نظــر العقلاء الألبّــاء .. والأمــر لا يحتــاج إلاّ إلى الفقــه بــدين اللــه ، والــوعي بحقائقــه ، ومجاهــدةِ النفس الدائبــة ، والصــدق مــع اللـــه ﷻ في جميــع الأحوال ، وتوفيق الله تعالى قبل ذلك وبعده ..

وخير عون للمؤمن على ذلك أن يكون مع المؤمنين الصادقين ، يلزم سبيلهم ، ويهتدي بسمتهم ، يقول الله تعالى : (ﭳ ﭴ ﭵ ﭶ ﭷ ﭸ ﭹ ﭺ ﭻ ﭼ)التوبة .

ويقول سبحانه : (ﭑ ﭒ ﭓ ﭔ ﭕ ﭖ ﭗ ﭘ ﭙ ﭚ ﭛ ﭜ ﭝ ﭞ ﭟ ﭠ ﭡ ﭢ ﭣ ﭤ ﭥ ﭦ ﭧ ﭨ ﭩ ﭪ ﭫ ﭬ ﭭ ﭮ ﭯ ﭰ ﭱ ﭲ) الكهف .

ومن كلام بعض السـلف : " **لا تصـحب من لا يُنهضُك حاله ، ولا يـدلّك على اللـه مقاله** " .

وعنـدما نـذكر سـموّ الإرادة وتفرّدهـا ، وعلـوّ الهمّـة وتألّقهـا ، لابـدّ أن نـذكر ثمراتهـا وبركاتهـا ، وأجلّها وأثمنها ما توّج به النبيّ عمـر بن الخطّـاب إذ قـال : (إِنَّ اللـهَ جَعَـلَ الحَـقَّ عَلَى لِسَـانِ عُمَـرَ وَقَلْبِهِ) [1] .

وقَالَ ابْنُ عُمَرَ : " مَـا نَـزَلَ بِالنَّاسِ أَمْـرٌ قَـطُّ فَقَالُوا فِيهِ ، وَقَالَ فِيـهِ عُمَـرُ إِلاّ نَـزَلَ فِيـهِ الْقُـرْآنُ عَلَى نَحْوِ مَا قَالَ عُمَرُ " [2] .

---

[1] ـ رواه الترمـذيّ في كتـاب المنـاقب /3615/ عَنْ ابْنِ عُمَرَ ، وقَالَ وَهَذَا حَـدِيثٌ حَسَـنٌ صَـحِيحٌ غَـرِيبٌ مِنْ هَـذَا الْوَجْـهِ ، ورواه أبو داود في كتاب الخراج والإمارة والفيء برقم /2572/ ، وفيـه أَنَّ عُمَـرَ بْنَ عَبْـدِ الْعَزِيـزِ كَتَبَ : " إِنَّ مَنْ سَـأَلَ عَنْ مَوَاضِـعِ الْفَيْءِ فَهُـوَ مَـا حَكَمَ فِيـهِ عُمَـرُ بْنُ الخَطَّابِ فَـرَآهُ المُؤْمِنُونَ عَـدْلاً مُوَافِقـاً لِقَوْلِ النَّبِيِّ : (جَعَـلَ اللـهُ الحَـقَّ عَلَى لِسَانِ عُمَرَ وَقَلْبِـهِ) فَـرَضَ الأَعْطِيَـةَ لِلْمُسْـلِمِينَ وَعَقَـدَ لأَهْلِ الأَدْيَانِ ذِمَّةً بِمَا فَرَضَ عَلَيْهِمْ مِنْ الجِزْيَةِ لَمْ يَضْرِبْ فِيهَا بِخُمُسٍ وَلا مَغْنَمٍ " ، فانظر كيف احتجّ على اتّباع سنّة عُمَرَ بِقَوْلِ النَّبِيِّ .

[2] ـ انظر المرجع السابق .

فعلى قــدر صدق العبــد في إرادتــه ، ومضــاء عزيمته وهمّته يكون الحقّ محور حياته ، وعلى قلبـه ولسانه ، وقصده وهمّته .

ورَبِيعَةُ بْنُ كَعْبٍ الْأَسْلَمِيُّ يتجاوز الدنيا وما فيها حين تهيّأ له أن يطلبَ من النَّبِيّ منيته ، فسألُه مُرَافَقَتَه فِي الجَنَّةِ ، كما جاء في الحديث عن رَبِيعَةَ بْنِ كَعْبٍ الْأَسْلَمِيّ قَالَ : كُنْتُ أَبِيتُ مَعَ رَسُولِ الله فَأَتَيْتُهُ بِوَضُوئِهِ وَحَاجَتِهِ فَقَالَ لِي : سَلْ ، فَقُلْتُ : أَسْأَلُكَ مُرَافَقَتَكَ فِي الجَنَّةِ ، قَالَ : أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ ، قُلْتُ : هُوَ ذَاكَ ، قَالَ : فَأَعِنِّي عَلَى نَفْسِكَ بِكَثْرَةِ السُّجُودِ) [1] .

* ـ وانظـر إلى أثـر الإرادة الشـريفة الطـاهرة في التحوّل إلى سبيل الحقّ والهدى ، في حياة كثير ممّن منّ الله عليهم بالتوبة وابتغاء وجه اللـه والـدار الآخرة .. كـان إبـراهيمُ بن أدهم رحمـه اللـه ، شـابّاً منعّمـاً يلهـو بالصـيد ، وهـو من أبنـاء ملـوك فـارس ،

[1] ـ رواه مسلم في كتاب الصلاة باب فضل السـجود والحثّ عليـه بـرقم /754/ والنسـائي بـرقم /1126/ وأبـو داود بـرقم /1125/ .

فسـمع نداء ذات مـرّة ، وهـو غـارق في لهـوه ومطاردة صيده : **" يا إبـراهيم ! ألهـذا خلقتَ أم بهذا أمرت ؟!** " ، فكان ذلك سبب زهده في الـدنيا ، وتوبتـه إلى اللـه تعـالى ، حتّى سـمّي سـلطان الزاهدين .

وسمع الفضيل بن عياض رحمه اللـه تاليـاً يتلـو قول الله تعالى من سورة الحديد : (ﮋ ﮌ ﮍ ﮎ ﮏ ﮐ ﮑ ﮒ ﮓ ﮔ ﮕ ﮖ ﮗ ﮘ ﮙ ﮚ ﮛ ﮜ ﮝ ﮞ ﮟ ﮠ ﮡ ﮢ ﮣ ﮤ ﮥ ﮦ ﮧ ﮨ ﮩ ﮪ) . فقال : " بلى يا ربّ لقد آن " ، فلزم سـبيل العلم والاستقامة ، وكان من الزهّاد العابدين .

* ـ والإرادة الصـادقة المغمـورة بـذلّ العبوديّـة لله **تعالى** والافتقار إليه خير بابٍ للدخول على الله .. يقول الإمام الربّانيّ عبد القادر الجيلانيّ رحمـه الله : " **نظرت في أبـواب الـدخول على اللـه تعالى فوجدتُها كلَّها مزدحمةً ، إلاّ بابَ الـذلّ والافتقار .. فدخلت منه إلى اللهِ تعالى** " .

* ـ ويكشف لنا ذلك الإمام الفـذّ تلـك الإرادات التافهة ، التي لا تفكير لأهلهـا ، ولا همّ لهم إلاّ الـدنيا

وشهواتها ، وكيف تضيع الأعمـار وراءهـا ، فيقـول : " **ضاع العمر في** : **أكلوا وأكلنا .. وشربوا وشربنا .. ولبسوا ولبسنا ..** " .. وما اختلف فينا عن ذلك شـيء ، فنحن اليـوم : **همّنا** ـ إلاّ من رحم ربّـك ـ التنافس في المأكل الطيّب .. والمشـرب الهـنيء .. وقضـاء الـوطر .. والمـركب الجديـد .. والمسـكن الفخم الواسع .. ثمّ قضـاء أيّ وقت فـراغ في اللهـو واللعب .. وربّما خاصم أهله أشدّ المخاصمة على تقصيرهم في أنواع المأكل والمشرب .. ثمّ يظنّ نفسه أنّه من صفوة الأمّة وخيارها .. ومـا أصـدق قول الشاعر الحطيئة في كثير منّا [1] :

دع المكارم لا ترحل لبغيتها واقعد
فإنّك أنت الطاعم الكاسي

---

[1] وقـد قالـه في الزبرقـان بن بـدر يهجـوه ، فشـكاه الزبرقـان إلى الخليفـة عمـر ، فحكّم عمـر الشـعراء في ذلك ، فعدّوه من أمرّ الهجاء وأقذعه .. وهو اليوم ممّا يتمدّح به الناس ، ويفتخرون !!

إنّنا نعجب والله كلّ العجب أن نرى أحوال الأمّة في تخلّفها على كلّ صعيد ، وأنّها أكثر أمم الأرض فقراً ، وجهلاً ، ومرضاً .. وفي أرضها تتدفّق الخيرات من كلّ لون : ذهباً أصفر وأسود ، وأحمر وأبيض ، ومن كلّ ما شئت .. ثمّ نرى أغنياءها ينفقون أموالهم ذات اليمين وذات الشمال ، في أبواب من البطر الإسراف ، والتبذير والترف ، والسفه الذي لا يقف عند حدّ .. وقد يمنّ أحدهم على ربّه ، وعلى عباد الله ، بما يدفع من زكاة ماله ، وهو يسمع بمن يموت مرضاً وجوعاً وعرياً ، ومن يفتن عن دينه ، فيكفّر استغلالاً لضرورته .. ثمّ لا يحرّك ذلك من نفسه ساكناً .!

ولقد كُتبَ عليّ في لقاء مع بعض الأغنياء ممّن يعدّ من صالحيهم ، أن أستمع إليه قرابة ساعة ونصف ، وهو يتحدّث ، ويستفيض في الحديث ويسترسل ، عن أبواب من بطره ، وبطر أهله وأولاده وأحفاده .. وذكر أرقاماً دهشت لها والله ، فتملّكتني الجرأة ، فقلت له : أتعرف فلاناً من الناس .؟ فقال : وكيف لا أعرفه .؟! إنّني أعرفه

حقّ المعرفة ، وأعرف والده رحمه الله ، فقـد كـان صديقاً لي منذ الصغر .. فقلت له بشيء من المزاح الجادّ : إذن على المغيث سقطتُ .! قال : ومـاذا .؟ فقلت له : إنّ فلاناً واقع في أزمة ماليّة ناجزة ، وإنّ ممّـا يخفّف من أزمتـه أن يعـان بإيجـار بيتـه ، وبيت ولده المتكفّل به .. فتغيّـر وجـه الرجـل ، ويبـدو أنّـه فوجئ بما سمع ، فقال لي : هذا واجب .. وسـأل عن المبلـغ ، فأجبتـه ، فقـال لي : سـيكون هـذا المبلـغ عندك خلال يومين ، فقلت له : أرى أن تقدّمه بنفسك .. عنوان صداقتك مع والده رحمه الله .. فقال لي : لا والله إلاّ عن طريقك ..

وفي نهاية اللقاء ذكّرته بلطـف بـأمر صـاحبنا ، فقال لي : إن شـاء اللـه كمـا وعدتك ، أنـا لا أنسـى هذه الأمور .! ومضت أيّام ، وبعدها أسـابيع ، ثمّ بـدا لي أن أذكّـره عن طريــق مــدير أعمالــه ، فكــان جوابه : إن شاء الله ! إن شاء الله ! ويبـدو أنّ اللـه لم يشأ له أن يفعل هذا الخير .!

وهذه عينة ، وما أكـثر أمثالهـا .! فكيـف نعجب ونستنكر أن تكون أحوال الأمّة على ما هي عليه .؟!

أيّهــا الأحبّــة ! أين التفكــير في المصــير .؟ والاستعداد ليوم الرحيل .؟! لقــد أصــبحت الآخــرة على هامش الحيــاة والتفكــير ، وهــذا عنــدَ كثــير من الملتزمين ، تحت مظلّة حِلّ المباح ، والتمتّع بالمباح .. ولا نتحــدّث عمّن نســي الآخــرة ، وجعلهــا وراءه ظهريّاً ..

* ــ فلننظــر في **خيــوط اهتماماتنــا : إلى ماذا هي مَشدودةٌ .؟ أهي مَشــدودةٌ** إلى اللــه ورسوله والدار الآخــرة ، أم إلى الشــيطان والــدنيا وأهواء النفس ورعوناتها .؟!

* ـ ولعلّنا نذكر هذا الدرس البليــغ من حياة النبيّ مع زوجاته الطاهرات ، فعنــدما بــدرت منهنّ بادرة الرغبة في الدنيا ، والحرص على التنعّم فيها هجرهنّ كلّهنّ ، ثمّ خيّرهنّ بــالعيش معــه على ما اختــار من حيــاة ، أو مفارقتــه لهنّ ، ونزل بذلك القرآن الكريم ، يقول الله تعالى : (ﮬ ﮪ ﮫ ﮭ ﮮ ﮯ ﮰ ﮱ ﯓ ﯔ ﯕ ﯖ ﯗ ﯘ ﯙ ﯚ ﯛ ﯜ ﯝ ﯞ ﯟ ﯠ ﯡ ﯢ ﯣ ﯤ ﯥ ﯦ ﯧ ﯨ ﯩ ﯪ ﯫ) الأحزاب . فانظروا رعاكم الله بم أجبن .!؟ لقد أجبن كلّهنّ أنّهنّ يردن الله ورسوله

والــدار الآخــرة .. ولاشــكّ أنّ هــذه الإرادة لهــا تكاليفها ، وليست كلمة مجاملة ، تقال في مناسبة عابرة ..

* ـ يقـول بعض الصـالحين : " مَـا أرادت همّـة سالِك أن تقف عند ما كشف لها إلاّ ونادتـه هواتـف الحقيقة : الذي تطلب أمامك ، ولا تبرّجت له ظواهر المُكَوَّنات إلاّ ونادته حقائقها : (ﮱ ﯓ ﯔ ﯕ ﯖ ﯗ) " .

إنّ كلّ ما في الحياة فتْنة ، يقِف حجباً سـميكةً أمـام إرادتنـا وهممنـا .. ومن أخطـر مـا يجتـاح إرادتنـا ، ويكسـر عزيمتهـا من فتْنـة الحيـاة أن نرضـى عن أنفسنا ، ونبرّر مواقفهـا ، ونظنّ بهـا الخـير والرشـد ، وهي غارقة في الوحل متخلّفة ، وأن نسمّي الأشْياء بغيرِ اسـمها ، تـبريراً لمواقفنـا وتسـويغاً : فالهزيمـة النفسيّة عنـد بعض الناس هي فنّ المنـاورة ، وإيثـار الـدنيا على الآخـرة تمتّـع بـالحلال المبـاح ، وبعـد عن التشدّد الممقوت ، ومن يجرؤ على تحريم الطيّبـات من الـــرزق .؟! واللصوصـــيّة شـــطَارة ونجـــاح ، والسقوط واقعيّة وذكاء .. وأن نُقدّمَ فلسفةً للانحراف والسقوط تغرينا بمزيـد من الانحـراف والسـقوط ..

وتجعلنا لا نفكّر في النهوض ، أو البحث عن النـور ..
ومن كلام بعض السـلف : " **أصـل كـلّ معصـية وغفلة وشـهوة الرضـا عن النفس ، وأصـل كـلّ طاعة ويقظـة وعِفّة عـدم الرضـا عن النفس ، ولأن تصـحبَ جـاهلاً لا يرضـى عن نفسه خير لك من أن تصـحبَ عالمـاً يرضـى عن نفسـه ، فـأيّ علم لعـالم يرضـى عن نفسـه .؟ وأيّ جهـل لجاهـل لا يرضـى عن نفسه** .؟! " .

* تقارب الخطى ، بل تطابقها : إنّ المـؤمن الحـقّ ، الموفّـق البصـير لا يعـرف الانفصـام بين إرادة الدنيا ، وإرادة الآخـرة ، بين مـوطئ قدمـه في الـدنيا ، ومـوطئ قدمـه في الآخـرة ، إذ إنّـه يعلم أنّ الحالة المثاليّة المطلوبة منه أن يتطابق مـوطئ قدمـه في الـدنيا مـع مـوطئ قدمـه في الآخرة ، وأن يكـون قـدم الـدنيا في خدمـة قـدم الآخرة ، فالدنيا لا تراد لذاتها ، وإنّمـا هي وسـيلة ومزرعة للآخرة ، وذلك ما يشـير إليـه قـول اللـه

تعالى : (ﮋ ﮌ ﮍ ﮎ ﯘ ﯙ ﯚ ﯛ ﯜ ﯝ ﯞ ﯟ ﯠ ﯡ ﯢ ﯣ ﯤ ﯥ
ﯦ ﯧ ﯨ) الأنعام .

وقوله سبحانه : (ﮧ ﮨ ﮩ ﮪ ﮫ ﮬ ﮭ ﮮ ﮯ ﮰ ﮱ ﯓ ﯔ ﯕ
ﯖ ﯗ ﯘ ﯙ ﯚ ﯛ ﯜ ﯝ ﯞ ﯟ ﯠ ﯡ ﯢ ﯣ ﯤ ﯥ ﯦ ﯧ ﯨ ﯩ ﯪ ﯫ)
القصص .

قال بعض أصحاب عمر بن عبـد العزيـز رحمـه الله : " **إنّي لأحسب أنّ عمـر بن عبـد العزيـز لم يعمل عملاً إلاّ وهو يحتسبه** " .

ـ وقال عمر بن عبد العزيز رحمـه الله : " **إنّي لأحتسب نومتي ، كما أحتسب قومتي** " .

* نمــاذج متألّقة : لقد كــانت أعظم مهمّــة للأئمّة الربّانيين في حيـاة هـذه الأمّـة أن يوجّهـوا همم الناس إلى إرادة الآخرة ، وأن تكون مواقع أقدامهم في الدنيا حيث كـانت تحسـب خطـوات في الآخرة ، إنّهم أصحاب قـدم الصـدق الراسـخة في الآخــرة لا يحصــون عــدّاً ، وهم نمــاذج التغيــير والتأثير المتألّقة ، وروّاد تجديد الدين وإحيائه ..

منهم الخليفــة الراشــد عمــر بن عبــد العزيــز رحمــه اللــه إذ يقــول : " إنّ لي نفســاً توّاقةً .. مــا بلغَت مَنزلةً إلاّ تاقَت لما هو أعلى منها ، فلمّــا بلغت الخلافةَ تاقَت نفسي لما هو أعلى منها ، فلم أجد إلاّ الجنّةَ .. وعلمتُ أنّ مــا عندَ اللــه لا يُنــالُ إلاّ بالزهــد في الدنيا فزهدتُ فيها " .

ومنهم حجّــة الإســلام الإمــام الغــزاليّ رحمــه اللــه ، الــذي انعطــف ذلــك المنعطــف الكبــير في حياته ، ودونكم كتابه : " **المنقذ من الضلال** " ، فــاقرءوه وتــدبّروه ، ومــا كــان بــه ضــلال الفكــر ، ولكنّه رأى في نفسه سوء القصد ، وفســاد الإرادة ، وضلال الســعي وراء الهــوى ، وابتغــاء عــرض الــدنيا وحطامها ..

ومنهم الإمام عبد القادر الجيلانيّ رحمــه اللــه ، الـــذي اجتمعت عليـــه قلـــوب الأمّـــة على اختلاف اتّجاهاتها ومشاربها .. وهذا سرّ إمامــة هــؤلاء الأئمّــة المهديّين وتألّقهم ..

* قــال لي بعض الشــباب الصــادقين : " **يهنّئني النـاس أنّـني الأوّل على مدرسـتي ، وما سألني أحد : هل أنت من المقرّبين عند ربّك** .؟! " .

وقال آخر لأمّه ، وقـد هنّأتــه بحفـظ القـرآن الكـــــريم : " **بم تهنّئينـــــني .؟ وقـــــد عظمت مسؤوليّتي أمام الله ! أرجوك أن تدعي الله تعالى أن يكون القرآن حجّة لي يوم القيامة ، لا حجّة عليّ** " .

كـــلّ النـــاس يبحث في هـــذه الـــدنيا عن موطئ قدمٍ ، ليكون عيشه فيهـا رغـداً .. ولكنّـه عندما يكون له موطئ قدمٍ أيكتفي به أم إنّه يقول : هل من مزيد .؟! ثمّ لا يشـبع من مزيـد .. ومن منّـا يتبصّـر مـوطئ قدمـه في الآخـرة ، أو يبحث عنه ، ويفكّر فيه .؟ : ([illegible]) يونس .. إنّهم قليل : (.. [illegible]) سبأ . ونسأل الله تعالى أن يجعلنا منهم ..

وما أكثر ما كان موطئ القدم في الـدنيا مزلّـة قدمٍ عن الآخرة .. لأنّ مزالقهـا لا تعـدّ ولا تحصـى .. يقول الشاعر مُحَمَّدُ بْنُ بَشِيرٍ [1] :

قدّر لرجلك قبل الخطو موضعها فمن علا زلقا عن غرّةٍ زلجا

* نماذج ومظاهر من اختلال الإرادة :

* تفـوّق الأولاد الظـاهريّ هـو الغايـة الـتي مـا بعدها غاية في نظر أكثر النـاس ، تبـذل لـه الأمـوال والجهــود والأوقــات .. وهــو مقيــاس النجــاح في الحيـاة .. والنمـوذج المحتـذى ، ولا عـبرة بمـا فـوق ذلـك ، ومـا دونـه ، ولا عـبرة عن أيّ طريـق أتى .! فأيّ تخلّف يملأ إهابنا .؟!

* وانظر معي في نماذج من واقعنا التربويّ المتعثّر :

* متفوّق في دراسته عاقّ لوالديه ..

* متفــوّق في دراســته مخفــق في حياتــه الاجتماعيّة ، وقدرته على التكيّف مع الآخرين ..

---

[1] ـ وهو شاعر عبّاسيّ مُقلّ ، انظـر أدب الـدنيا والـدين ص /276/.

* متفوّق في دراسته مغـرور بنفسـه ، واقـف عند أمجاده الموهومة ..

* متفـوّق في دراسـته ، بلا تفكـير سـويّ ولا إبداع ، وإنّمـا حشـو رأسـه أمشـاج من المعلومـات ، لا يعرف سوى حفظ ما يلقى عليه منها كالببّغاء ..

ـ وإنّ **من انتكاســات الإرادة ،** ومن ظــواهر أمراضــنا وأعراضها : **غفلتنــا عن مسـئوليّاتنا الخاصّـة ، وإهمالنـا لهـا ،** فكيف يقود مَركَب الأسرة ومَـركَب الحيـاة والآخـرين ، من يعجـز عن قيـادة مَـركَب النفسِ وسياستها .؟ وكيـف نقـدم على اللـه تعـالى ، ونحن مفرّطـون بأماناتنـا ، مضيّعون لها .؟

ومـا أحوجنا إلى إثـارة هـذه التسـاؤلات بين الحين والآخـر ، وأن نصـدق مـع أنفسـنا في الإجابـة عنها : ماذا قدّمنا لديننا ، وماذا نقدّم .؟ أنحـدو للـركب ونرعى حركته .؟ أم نشوّش عليه ونعوّق مسيرته .؟ ونصدّه عن صراط الله **المستقيم ..** إنّني أقول بكلّ أسى : **إنّ فينا فَتّانين** وقطّاع طرق ، وفينا معوّقين ومثبّطين .. وما أخطر قطّـاع الطريـق على القافلـة .!

وما أشدّ خطرهم وضررهم عندما يكونون من أبنائها ، يعيشــون في صــفوفها ، وينعمــون بظلالهــا ، أو يكونـــون من رعاتهـــا ، ويملكـــون بعض زمامها .! فيكونـون فتنـة للأقـربين والأبعـدين .. فليكن لسـان صدقك قائلاً :

سوف أحدو للركب ما دمت حيّاً عسلاً ذقت أم طعامي شيحُ

إنّ دعـوة الحـقّ أخي المـؤمن ! تتطلّب تجريـد الهمّة ومضــاء العزيمة ، وأن لا يقــف المــؤمن عنــد المعوّقـات والمثبّطـات ، كما وصف الشـاعر أمثـال هؤلاء :

إذا هَمّ ألقَى بين عَينيه هَمَّه وَنَكّبَ عَن ذِكرِ العَواقِبِ جَانِبا

وإنّه لا يفقـه دعـوة الحـقّ ، ولا يحظى بشـرف نصرتها من ظنّ أنّهـا بضـاعة الضـعفاء والكسـالى .. إنّها مهنة الأنبياء ومـيراثهم ، وأنبيـاء اللـه تعـالى هم صفوة الصفوة .. وإنّها دعوة تتطلّب همم الصفوة .. وإنّ الصـــفوةَ هم الذين يحملـــون همّ الـــدين والدعوة ، ليلاً ونهـاراً ، سـرّاً وجهـاراً ، إنّـه همّهم

المقيم المقعد ، الأوّل والأخـير ، يطغى على كـلّ همّ ، ويملـك كـلّ القـوى والمشـَاعر ، يعيشـون لأجله ، ويسخّرون كلّ طاقاتهم لنصرته وتأييـده ، ويبذلون في سبيله كلّ غالٍ ونفيس ..

وقد حدّد الإمام البنّا رحمه اللـه صـفات هـؤلاء في كلمـات جامعـة : " وإنّ تكـوين الأمم ، وتربيـة الشعوب ، وتحقيق الآمال ، ومناصرة المبادئ تحتاج من الأمّة التي تحـاول هـذا أو من الفئـة الـتي تـدعو إليه على الأقلّ إلى قوّة نفسيّة عظيمة ، تتمثّـل في عدّة أمور :

1 ـ إرادة قويّة لا يتطرّق إليها ضَعْف .

2 ـ وفاء ثابت لا يعدو عليه تلوّن ولا غدر .

3 ـ تضحية عزيزة لا يحول دونها طمع ولا بخل .

4 ـ معرفة بالمبدأ ، وإيمـان بـه ، وتقـدير لـه ، يعصم من الخطأ فيه ، والانحراف عنه ، والمسـاومة عليه ، والخديعة بغيره " [1] .

[1] ـ من رسالة : " إلى أيّ شيء ندعو النـاس " للإمـام حسـن البنّا .

وعلينا أن لا ننسـى أنّ الأمّـة المغلوبـة على أمرهـا ، المحجُوبـة عن السـيادة والصـدارة لا تبلـغ القمّةَ وهيَ واهنة الإرادة ، مخْتلطة المقاصد ، أسيرة الهـوى .. لابـدّ أَن يغيّـر الإيمـان أحوالَهـا ، ويزوّدهـا بطاقـات جديـدة من اليقين باللـه ، والتجـرّد عن المطامع ، والجراءة في نصـرة الحـقّ ، حتّى تسـتطيع أنْ تقهر عدوّها ، وتضع على الأرض طابعاً جديداً من العبوديّة لله ، والترفّع عن شهَوات الدنيا .. [1] .

وإنّ ممّا يشـحذ إرادتـك ، ويـذكي همّتـك أن تعلم أنّ حقيقـة الصـراع بين الحـقّ والباطـل ، والخير والشرّ ، في النفس ، وفي شـتّى ميـادين الحيـاة إنّما هـو صـراع إرادات .. فهـل ترضـى لنفسك أن تكون المغلوبَ المقهور ، وأنت تملـك الإرادة الحـرّة ، والعزيمـة الصـادقة .؟! وشـتّان بين ما تَطمح إليه وترجوه ، وما يطمح إليه أولئك الذين لا يعرفون إلاّ الدنيا ، ولا يحومون إلاّ حولهـا ..

---

[1] (?) ـ من كلام الشيخ محمّد الغـزاليّ في بعض كتبـه ، بتصـرّف وزيادة .

وإنّ ممّا يحفّز أخي الكـــريم إرادتـــك ، وينهض بهمّتك أن تتدبّر إرادة الله لـك ، وهـو سـبحانه الغـنيّ عن العالمين ، إذ يقول الله ﷻ : ([illegible]) النساء .

ويقول تعالى : ([illegible]) البقرة .

ويقول ﷻ : ([illegible]) النساء .

ويقول جلّ وعلا : ([illegible]) الأحزاب . والآيات في هذا المعنى كثيرة ..

* وبعد ؛ فأخوف ما ينبغي أن يخيف المؤمن : **حـــديث الثلاثـــة في صـــحيح مســـلم** : عن أبي هريرة ﷺ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول :

(**إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ يُقْضَـى يَـوْمَ الْقِيَامَـةِ عَلَيْهِ : رَجُلٌ اسْتُشْهِدَ ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَـا ، قَـالَ : فَمَـا عَمِلْتَ فِيهَـا ؟ قَـالَ : قَاتَلْتُ فِيكَ حَتَّى اسْتُشْـهِدْتُ ، قَـالَ : كَذَبْتَ ،**

وَلَكِنَّكَ قَــاتَلْتَ لأَنْ يُقَــالَ : جَــرِيءٌ ، فَقَــدْ قِيلَ ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُـحِبَ عَلَى وَجْهِـهِ ، حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ ، وَرَجُلٌ تَعَلَّمَ العِلْمَ وَعَلَّمَـهُ ، وَقَـرَأَ الْقُـرْآنَ ، فَـأُتِيَ بِـهِ ، فَعَرَّفَـهُ نِعَمَـهُ فَعَرَفَهَـا ، قَــالَ : فَمَــا عَمِلْتَ فِيهَـا ؟ قَــالَ : تَعَلَّمْتُ العِلْمَ وَعَلَّمْتُهُ ، وَقَرَأْتُ فِيكَ القُرْآنَ ، قَـالَ : كَـذَبْتَ ، وَلَكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ العِلْمَ لِيُقَـالَ : عَالِمٌ ، وَقَرَأْتَ القُـرْآنَ لِيُقَـالَ : هُـوَ قَـارِئٌ ، فَقَدْ قِيلَ ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُـحِبَ عَلَى وَجْهِـهِ ، حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ ، وَرَجُلٌ وَسَّعَ اللهُ عَلَيْهِ ، وَأَعْطَاهُ مِنْ أَصْنَافِ المَالِ كُلِّهِ ، فَأُتِيَ بِـهِ ، فَعَرَّفَـهُ نِعَمَـهُ فَعَرَفَهَـا ، قَـالَ : فَمَـا عَمِلْتَ فِيهَا ؟ قَـالَ : مَـا تَـرَكْتُ مِنْ سَـبِيلٍ تُحِبُّ أَنْ يُنْفَقَ فِيهَا إِلاّ أَنْفَقْتُ فِيهَا لَكَ ، قَالَ : كَذَبْتَ ، وَلَكِنَّكَ فَعَلْتَ لِيُقَــالَ : هُــوَ جَــوَادٌ ، فَقَــدْ

قِيـلَ ، ثُمَّ أُمِـرَ بِـهِ فَسُـحِبَ عَلَى وَجْهِـهِ ، ثُمَّ أُلْقِيَ فِي النَّارِ) [1] .

(?)1 – رواه مسـلم في كتـاب الإمـارة عَنْ أَبِي هُرَيْـرَةَ بـرقم / 3527/ ·

2 ـ النافـــذة الثانية : نافـــذة العلم والحكمة :

يقول الله تعالى : (ﭻ ﭼ ﭽ ﭾ ﭿ ﮀ ﮁ ﮂ ﮃ ﮄ ﮅ ﮆ ﮇ ﮈ) البقرة . وانظر وتدبّر كم من مـرّة اقـترن فيها اسما الله : " **العليم الحكيم** " في القــرآن العظيم .!

إنّ الإنسان أحـوج مـا يكـون إلى أن يستضـيء بنور العلم في كلّ خطوة من خطـوات حياتــه ، وأن يكــون العلم الصــحيح مصــدر ســيره وتوجّهــه ، لا التعصّـب وتقـديس الهـوى .. ومن ثمّ يـأتي قـول اللـه تعالى : (.. ﭣ ﭤ ﭥ ﭦ ﭧ) طه . تذكيراً للإنسان بـأن مـا هـو عليـه من العلم يحتـاج إلى مزيـد منـه دائمـاً ، وإنّهـا لحقيقـة بدهيّـة ، لا يقـف عنـدها أكـثر النــاس لشــدّة وضــوحها وبــداهتها ، ولكنّ أكــثرهم يخرجــون عنهــا في ســلوكهم العمليّ ، ومــواقفهم اليوميّة ، ولا يرون أنفسهم إلاّ محسنين .. إنّنا نحتاج كلّ لحظة أن ندعو هذا الدعاء : (ﭣ ﭤ ﭥ) .. ونرى كثيراً من الناس يقفـونَ عنـد مـا هم عليـه

من العلم منـــذ ثلاثين ســـنة أو أقـــلّ أو أكـــثر ، ويريدون للنـاس أن يقفـوا معهم كذلك ، ويـرون أنفسَهم أنّهم على كمال ما بعده من كمال ..

ومن أجمل ما وقفت عليه في بيان منزلة العلم والترغيب فيه ، قول الإمام الماورديّ رحمه الله : « .. عَلَى أَنَّ الْعِلْمَ وَالعَقْلَ سَعَادَةٌ وَإِقْبَالٌ ، وَإِنْ قَلَّ مَعَهُمَا المَالُ ، وَضَاقَتْ مَعَهُمَا الْحَالُ . وَالجَهْلَ وَالحُمْقَ حِرْمَانٌ وَإِدْبَارٌ ، وَإِنْ كَثُرَ مَعَهُمَا الْمَالُ ، وَاتَّسَعَتْ فِيهِمَا الْحَالُ ؛ لِأَنَّ السَّعَادَةَ لَيْسَتْ بِكَثْرَةِ المَالِ ، فَكَمْ مِنْ مُكْثِرٍ شَقِيٌّ ، وَمُقِلٍّ سَعِيدٌ . وَكَيْفَ يَكُونُ الْجَاهِلُ الغَنِيُّ سَعِيداً ، وَالجَهْلُ يَضَعُهُ .؟ أَمْ كَيْفَ يَكُونُ الْعَالِمُ الْفَقِيرُ شَقِيّاً وَالْعِلْمُ يَرْفَعُهُ ؟ وَقَدْ قِيلَ فِي مَنْثُورِ الْحِكَمِ : كَمْ مِنْ ذَلِيلٍ أَعَزَّهُ عِلْمُهُ ، وَمِنْ عَزِيزٍ أَذَلَّهُ جَهْلُهُ .. وَأَنَا أَسْتَعِيذُ بِاَللَّهِ مِنْ خِدَعِ الجَهْلِ المُذِلَّةِ ، وَبَوَادِرِ الحُمْقِ المُضِلَّةِ ، وَأَسْأَلُهُ السَّعَادَةَ بِعَقْلٍ رَادِعٍ ، يَسْتَقِيمُ بِهِ مَنْ زَلَّ ، وَعِلْمٍ نَافِعٍ يَسْتَهْدِي بِهِ مَنْ ضَلَّ . فَقَدْ رُوِيَ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ

قَالَ : « إِذَا اسْتَرْذَلَ اللهُ عَبْداً حَظَرَ عَلَيْهِ العِلْمَ » [1] .

فَيَنْبَغِي لِمَنْ زَهِدَ فِي العِلْمِ أَنْ يَكُونَ فِيهِ رَاغِباً ، وَلِمَنْ رَغِبَ فِيهِ أَنْ يَكُونَ لَهُ طَالِباً ، وَلِمَنْ طَلَبَهُ أَنْ يَكُونَ مِنْهُ مُسْتَكْثَراً ، وَلِمَنْ اسْتَكْثَرَ مِنْهُ أَنْ يَكُونَ بِهِ عَامِلاً ، وَلاَ يَطْلُبُ لِتَرْكِهِ احْتِجَاجاً ، وَلاَ لِلتَّقْصِيرِ فِيهِ عُذْراً . وَقَدْ قَالَ الشَّاعِرُ :

فَلَا تَعْذِرَانِي فِي الإِسَاءَةِ إِنَّهُ شِرَارُ الرِّجَالِ مَنْ يُسِيءُ فَيُعْذَرُ

وَلاَ يُسَوِّفُ نَفْسَهُ بِالمَوَاعِيدِ الكَاذِبَةِ ، وَيُمَنِّيهَا بِانْقِطَاعِ الأَشْغَالِ المُتَّصِلَةِ ، فَإِنَّ لِكُلِّ وَقْتٍ شُغْلاً ، وَلِكُلِّ زَمَانٍ عُذْراً . وَقَالَ الشَّاعِرُ :

نَرُوحُ وَنَغْدُو لِحَاجَاتِنَا وَحَاجَةُ مَنْ عَاشَ لاَ تَنْقَضِي

تَمُوتُ مَعَ الْمَرْءِ حَاجَاتُهُ وَتَبْقَى لَهُ حَاجَةٌ مَا بَقِيَ

وَيَقْصِدُ طَلَبَ الْعِلْمِ وَاثِقاً بِتَيْسِيرِ اللَّهِ ، قَاصِداً وَجْهَ اللَّهِ تَعَالَى بِنِيَّةٍ خَالِصَةٍ ، وَعَزِيمَةٍ صَادِقَةٍ » [2] .

---

[1] رواه الشهاب القضاعي في مسنده بلفظ : « ما استرذلَ اللهُ عبداً إلاّ حظرَ عنه العلمَ والأدبَ » عن أبي هريرة 3/225 ‌/.

[2] ـ أدب الدنيا والدين ص/53/.

إنّ الأخذ بالعلم ، والتفوّق فيه ، والطموح إلى أعلى درجات التخصّص فيه ، وبخاصّة في هذا العصر هو سبيل الرقيّ والتقدّم ، وهو ما لا يريده لنا أعداؤنا ، ويتّخذون كلّ وسيلة لصدّنا عنه ، وإشغالنا بتوافه الأمور .

وأظهر تلك التوافه أن يكون قصارى همّة الإنسان أن ينال الشهادة الدراسيّة مهما علت .. ليتفاخر بها بين الأقران ، ويتصدّر بها في المجالس ، ويتباهى بها بين الناس ، ويتّخذها حرفةً للارتزاق .. ثمّ يتناسى ما تعلّم حتّى يكون أشبه بالعامّة ، ولكنّ فرقه عنهم أنّه يتعالم ، ويعترفون بجهلهم ، إذ منحته تلك " الورقة " الجهل المركّب ..

والعلم يمنح الإنسان سعة الصدر ، ونفاذ البصيرة ، والثبات على الحقّ ، فلا ييأس ولا يحبط ، ولا يتجَاوز حدّه ولا يَشتطّ ، مهما أحاطت به الشدائد والمحن ، والإنسان يحتاج دائماً إلى منشّطات الأمل ، وكوابح الغرور ، فإنّ يأسه من النجاح يقوده إلى

السقوط ، واغتراره بما عنده يمنعه التقدّم والسـبقَ . ولا شيء كالعلم يحقّق له ذلك ..[1]

وينبغي أن نعلم أنّ ضمورَ العلم والمعرفة يقابله ، ولا ينفكّ عنه : تضخّم الهوى وتحكّمه ، وهـو بلاء لا آخـر له .. وعِلاجه : **تكثير المعارف** ذات النوعيّة المـؤثّرة ، حتّى يتّسع الأفـق النفسـيّ للإنسـان **ويرقى** ، **وتربية الضمير** ، حتّى لا يستكين للشهوات ويذلّ ، والأفراد والجماعات في ذلك سواء ..

والتقصير في العلم يعني التخلّف بكلّ جوانبه ومناحيه ، وأنواع العلل التي تنخر في جسد الأمّة وكيانها ، ووخيم آثارها ..

فهل لفئة راشدة ، أو أمّة عاقلة : أن تختار هذا الطريق ، وتوغل في مسالكه ، وتقنع بنتائجه وآثاره .؟!

وأمّا الحكمة فهي أعظم نعمـة يمنّ اللـه تعـالى بها على الإنسان بعد نعمة النبوّة ، يقول الله ﷻ : (ې ې [illegible]) البقرة .

---

[1] - من كلام الشـيخ محمّد الغـزاليّ في بعض كتبه ، بتصرّف وزيادة .

ويقول الله تعالى : (ٻ ٻ ٻ ٻ پ پ پ ٺ) لقمان .

" والحكمة لا يمكن خروجها عن معنيين هما : العلم ، وفعل الصواب ، فهي تنقسم إلى حكمة نظرية ، وحكمة عملية ، ولابدّ من اجتماعهما في السلوك الكامل " [1] . وأحسن ما جاء في تعريفها وأجمعه قول الإمام النوويّ رحمه الله : " **إنها العلمُ المتّصفُ بالإحكامِ ، المشتمِلِ على المعرفةِ باللهِ تعالى ، المصحوبِ بنفاذِ البصيرةِ ، وتهذيبِ النفسِ والأخلاقِ ، وتحقيقِ الحقّ والعملِ به ، والصدّ عن اتِّباعِ الهوى الباطل ، والحكيمُ مَن له ذلكَ** " [2] .

فقَد جمع هذا التعريف صحّةَ العلم ، وَسَداد العمل ، وسلامة القصد وانضِباط السلُوك ، المعبّر عنه **بتهذيبِ النفسِ** ، والبعد **عن الهوى ،** وكلّ ذلك من لوازم الاستقَامة على منهج الحقّ .

---

[1] (؟) ـ انظر : تفسير الإمام الرازي 2 / 347 / و 2 / 283 / في تعريف له جامع للحكمة ، وانظر " المدخل إلى علم الدعوة " ص/ 17 /بتصرف وقد اعتمدت في هذا التقسيم عليه .

[2] (؟) ـ انظر فيض القدير للمناوي 3/ 416 / .

ويمكن أن نفهم العلاقـــة بين العلم والحكمة : أنّ العلم بمثابة المادّة الخـام ، الـتي تتصرّف بها الحكمة ، فتضـعها مواضعها ، وتحسـن توظيفها ، وتصنع منها ما ينفع الفـرد والجماعـة ، وتقتبس من نورها في كلّ مناســبة .. فـــإن لم يقـترن العلم بالحكمـة الـتي تقـوده وتضـبطه ، وتهديه وترشده ، وتسمو به وتهذّبه كـان وبـالاً على صـاحبه ، وكارثـة على مجتمعـه .. وكان مثلـه كمن بيــده مصــباح ، ولكنّــه يغمض عينيــه ، ويخبــط في الأرض على غير هدى ..

وقـد شاع عنـد العلمـاء والعامّـة قـولهم : " فلان علمـه أكـبر من عقلـه " ، يقولونهـا عمّن لا يحسن توظيف علمه بحكمة ، ولا يضعه مواضـعه ، والحكيم يغنيـه قليـل العلم عن كثـيره .. لأنّــه يحسن توظيــف مــا عنــده من العلم ، فلا تطغى فـروع علمـه وغرائبـه على أصـوله وثوابتـه ، ولا متشــابهه على محكمه .. فليســت بضــاعته من العلم خفيفـة مزجـاة ، ليشـبه حالـه مـا قيـل : " **حفظتَ شيئاً وغابَت عنكَ أشياءُ** " .

[illegible]

3 ـ النافذة الثالثة : نافذة العمل :

يقول الله تعالى : (ۋ ۀ ۀ ۀ ۀ ې ې ۑ ۑ ﯨ ﯩ ﯪ ﯫ ﯬ ﯭ ﯮ ﯯ ﯰ ﯱ) التوبة .

* إنّ أخطر مشكلةٍ نعاني منها وهي مِن أخطر أسـبابِ التخَلّـف في عالمنـا الإسـلاميّ هي مشـكلة الانفصام بين العلم والعمـل ، وبُعـدِ الاتّصـال بينهمـا في حياة أكثر الناس .. وقد حذّر الله تبـارك وتعـالى من ذلك فقال سبحانه : (ﮗ ﮘ ﮙ ﮚ ﮛ ﮜ ﮝ ﮞ ﮟ ﮠ ﮡ ﮢ ﮣ ﮤ ﮥ ﮦ ﮧ ﮨ ﮩ ﮪ ﮫ) الصفّ . فما أشدّه مِن تقريع وعتاب ، بلْ إنّـه لتهديـدٌ ووعيـدٌ يُقلـقُ الأتقيـاء أولي الألباب .؟!

وقال تعالى موبّخاً بني إسـرائيل ، وكـلّ من سار سيرتهم : (ﮛ ﮜ ﮝ ﮞ ﮟ ﮠ ﮡ ﮢ ﮣ ﮤ ﮥ ﮦ ﮧ ﮨ) البقرة .

ولاشـكّ أنّ الاختلاف بين القـول والعمـل على درجات ، أخطرها التناقض الذي هـو أشـبه بانفصـام الشخصيّة ، وهو من صفات الكـافرين والمنـافقين ، ولا يلتقي مع خلائق أهل الإيمان بحال .. وفوق ذلـك

درجات تختلـف نسـبتها ، ويطـال المقت كـلّ درجـة منها بحسبها .

وقــد ســمعت كلمــة حــقّ مــأثورة ، من بعض مشايخي رحمهم الله تعالى ، لم أعثر عليهـا في شـيء من الكتب : " **من لم يكن في زيــادة من أمــر دينـــه فهو في نقصـــان ، ومن كـــان في نقصان فبطن الأرض خير له من ظهرها** " ..

فكيفَ لنا أن نقصّر هَذه المسافة أَوْ نُلغيَهـا .؟!

إنَّ الأمــرَ يســيرٌ على من تحلّى بالصــدق ، وأســرجَ مراكبَ الجِدّ ، وعقَدَ العزمَ ، وأخلصَ القصدَ ، وراقب اللهَ عندَ كلّ كَلمةٍ يقولُها ، واستعان بالله تعــالى في شَأنِه كلّه ..

وإنّ بعدَ المســافةِ بين العلمِ والعَمـل لا يَقتصِـرُ أثره عَلَى الجانبِ الدينيّ فحَسب ، وإنّما هو مشـكلة أخلاقيّــة كـــبرى ، وزلزلـــة تُصـــيبُ بُنيـــةَ علاقاتنـــا الاجتمَاعيّة من قَواعدها ، ليسَ على مُستوى العامّــة بل الخاصّة .. فتختلّ الثقَة ، ويشيعُ الشكُّ ، ويُسيطِرُ ســوءُ الظنّ ، حتّى عَلى بَعض الأخيــار ، فيصــبحونَ في حالةٍ منَ الإحباطِ ، والعطالة عَنْ فعــلِ الخَــيرِ ..

ثمّ تكون القطيعة والتـدابر .. ومن ثمّ فقـد جـاء في الحـــديث الصـــحيح : (**يُـــؤْتَى بِالرَّجُـــلِ يَـــوْمَ القِيَامَةِ ، فَيُلْقَى فِي النَّارِ ، فَتَنْـدَلِقُ أَقْتَـابُ بَطْنِهِ ، فَيَدُورُ بِهَا كَمَا يَدُورُ الحِمَارُ بِالرَّحَى ، فَيَجْتَمِعُ إِلَيْهِ أَهْلُ النَّارِ فَيَقُولُونَ : يَا فُلانُ ! مَا لَكَ .؟! أَلَمْ تَكُنْ تَـأْمُرُ بِـالمَعْرُوفِ وَتَنْهَى عَنِ المُنْكَــرِ ؟! فَيَقُــولُ : بَلَى ، قَــدْ كُنْتُ آمُــرُ بِالمَعْرُوفِ وَلا آتِيهِ ، وَأَنْهَى عَنِ المُنْكَرِ وَآتِيهِ**) [1] .

والقــولُ بلا عمــل بضــاعةُ البطّــالين ، وحِلْيــةُ الفــارغين ، ومُنيــة المغــرورين ، ومنـه تَفـوحُ رائحـة الرضا عن النفسِ ، **" وما ترك من الجهلِ شيئاً من رضي عن نفسِه "** ، كما يقول السلف ..

ومبـدأُ الأمـر أَنَّنـا نَسـتهوِنُ القـولَ بلا عَمـل ، ونَسـتروِحُ إلى حُبّ الحمـدِ بمـا لم نَفعـلْ ، ونبتـاعُ الــوهمَ الكــاذب ، ونســتمطر المــاءَ من أخيلـــةِ

1(?) - رواه مسلم في كتاب الزهد والرقائق عَنْ أُسَامَةَ بْنِ زَيْــدٍ برقم/5305/ ·

السراب .. وهكذا حتّى تتباعـد المسـافة بين القـول والعمــل .. ويكون القول حجابــاً لنــا عن العمــل .!

فهلْ لنا أن نعقل فسادَ هذا الواقع ، وما يترتّب عليه من نتائج وآثار .؟!

ومن عرف عظم المسئوليّة علم أنّ الأمر أكبر من توافق القول مع العمل .. إنّها حقوق اللــه الـتي تستغرق شئون العبد وأحواله ، وقلبه وعقلـه ، وكـلّ جوارحه ، وقـد قـال بعض الصـالحين : " حقـوق في الأوقات يمكن قضــاؤها ، وحقــوق الأوقات لا يمكن قضـاؤها ، إذ مـا من وقت إلاّ ولله عليـك فيـه حـقٌّ جديد ، وأمر أكيد ، فكيـف تقضـي فيـه حـقّ غـيره ، وأنت لم تقض حقّ الله فيه .؟! " .

وقال أيضاً : " المؤمن يشـغله الثنـاء على اللـه عن أن يكون لنفسـِه شـاكراً ، وتشـغله حقـوق اللـه عن أن يكون لحظوظه ذاكراً " .

وفي كتب الأخلاق والرقــائق شــيء كثــير من الأدبيّات الواعظة الزاجـرة ، عن اختلاف القـول مـع العمل ، ممّا يدعو المـؤمن إلى أن يكـون حـذراً من

تمكّن هذا الداء من نفسه ، ويجاهد نفسه ما استطاع للتخلّص منه :

يروى أنّ الإمام أبا حامد الغزاليّ رحمه الله بعدما طار صيتُه في الدعوة والتربية ، وعظم تأثيره في قلوب الناس ، خشي عليه أخوه أحمد ، الذي عرف بالزهد بالدنيا ، فوعظه بأبيات قال فيها :

أخذتَ بأعضادِهِم إذ وَنَوا وَخَلّفَكَ الجَهدُ إذ أسرَعُوا
وأصبحتَ تَهدي وَلا تَهتدِي وَتُسمِعُ وَعظاً وَلا تَسمَعُ
فيَا حَجَرَ الشَّحذِ حَتَّى مَتَى تَسُنُّ الحديدَ وَلا تَقطَعُ .؟!

ومنْ طريف ما قيل من المواعظ :

قال شيخ لمومسٍ : أنت سكرى كلّ يومٍ بصاحبٍ لك وجدُ
قالتْ : أنا كما قلت لكن أنت حقّاً كما للناس تبدو .؟!

وإنّ المفارقة بين القول والعمل ، والغفلة عن ذلك ، لهي أحوج أحوالنا إلى المحاسبة والاستغفار والتوبة :

أستغفر الله من قولٍ بلا عملٍ فقد نسبتُ به نسلاً لذي عقم

4 ـ النافذة الرابعة : نافذة التغيير :

يقول الله تعالى : (.. ﮪ ﮬ □□□□ ﮜ ﮛ ﮚ ﮝ

.. ﯻ) الرعد .

لقد تكفّل الله لنـا بتغيـير مـا حولَنـا إن غيّرنا ما بأنفسـنا ، ونحن نسـعى في تغيـير ما حولنا ، ونهمـل مـا أمرنـا بتغيـيره ، وهي أنفسنا .!

و**قـد** جـاء في بعض الآثـار : " **يـا ابن آدم ! غيّر ما في نفسك ، أغيّر لك العالم** " .

وإنّ الأصـل الأوّل الـذي يقـوم عليـه بـاعث التغيير هو عدم الرضا عن النفس ، وعدم الرضـا بـالواقع ، والرؤيـة الواضـحة لآفـاق السـموّ وجمالها ، ولذّة المجاهدة لبلوغها ، وحلاوة العيش في رحابها .. والتغيير عمليّة رقيّ متواصـل .. إنّـه تجديد للحيـاة ، وشـحذ للهمّـة .. كمـا أنّ القعـود عن التغيير الإيجابيّ يعني أنّ الإنسان في تناقص وتآكل داخليّ ، فإلى أيّ حدّ سينتهي بـه الأمـر يـا ترى .؟!

والقرآن الكريم يدعونا إلى التغيير الإيجابيّ مع الثبات على الحقّ إلى الممات ، يقول الله تعالى : (ﭫ ﭬ ﭭ ﭮ ﭯ ﭰ ﭱ ﭲ ﭳ ﭴ ﭵ ﭶ ﭷ) آل عمران .

وإنّ ممّا يدعونا إلى التغيـير الإيجـابيّ أن نقـف مع أنفسنا لحظة تأمّل صـادق .. لنقـارن بين بـدايتنا وبين ما نحن عليه الآن ؛ فإن كنّـا الآن أرقى إيمانـاً ، وأحســن حـالاً وسـلوكاً فلنستبشـر أنّ خطّنـا البيـانيّ صاعد ، وأنّنا على الصراط سـائرون .. وإن كنّـا على غير ذلك فلنعلم أنّ الخطـر كبـير ، وسـبيل التـدارك بين أيــدينا منــذ هــذه اللحظــة ، ولنعلم أنّ خــطّ الانحراف بدأ قليلاً ، وتسويف العمل البنّـاء ، والتغيـير الجادّ هو الذي بلغ بنا إلى ما نحن عليه ..

والتغيير المطلوب هو التغيير الذي يتوافـق مـع مـا يريده الله تعالى من عباده ، أَوْ يأذن به ، وإلاّ فمـا أكـثر الذين يُغَيّرون ، ولكنّه تغيير سلبيّ ، يدفعه حبّ السلامة وإيثار الدنيا ، ويتوافق مـعَ أهـوائهم ، وينطلـق منهـا ، أو يمالئ أهواء الآخرين ويجاريها .! يقول تعالى : (ﭑ ﭒ ﭓ ﭔ ﭕ ﭖ ﭗ ﭘ ﭙ ﭚ ﭛ ﭜ ﭝ .. ﭲ) النساء .

ولا يكتب اللـــه عليهم ذلـــك إلاّ إذا أراد لهم أن يخرجهم من واقعٍ مزرٍ إلى مـا فيـه عـزّهم ورفعتهم في الدنيا والآخرة ..

وقال بعض السلف : " **لو أمرَنا رسول الله بقطـع الأعنـاق لقطعناها** " .. لأنّهم يعلمـون أنّهم لا يؤمرون بذلك إلاّ إذا تمحّض خيراً لهم ، وبــذا كانوا رجالاً حكماء ألبّاء ، لم تَجُد الأيّام بمثلهم ..

إنّ التغيير في حقيقته رقيّ نفســـــيّ وروحي وسلوكيّ ، لا يقف عند حدّ ، وإنّي لألحظ من حـديث النبيّ عن حافظ القرآن : (اقْرَأْ وَارْتَقِ ، وَرَتِّلْ كَمَا كُنْتَ تُرَتِّلُ فِي الدُّنْيَا ، فَإِنَّ مَنْزِلَتَكَ عِنْدَ آخِرِ آيَةٍ تَقْرَأُ بِهَا) [1] ما يشير إلى أنّ من قرأ وارتقى في الـدنيا ، وغيّــر القـرآن الكـريم مفاهيمـه وسـلوكه ، قرأ فى الجنّة وارتقى ، وحظي بفضـل اللـه بـأعلى المنـازل والدرجات .. والجزاءُ من جنس العمل .

---

[1] (?) رواه الترمذي في كتـاب فضـائل القـرآن عَنْ عَبْـدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو ، وروى عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ قَـالَ : يَجِيءُ الْقُـرْآنُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَقُولُ : يَـا رَبِّ حَلِّهِ ، فَيُلْبَسُ تَـاجَ الْكَرَامَـةِ ، ثُمَّ يَقُولُ : يَا رَبِّ زِدْهُ ، فَيُلْبَسُ حُلَّةَ الْكَرَامَةِ ، ثُمَّ يَقُولُ : يَـا رَبِّ ارْضَ عَنْهُ ، فَيَرْضَى عَنْهُ فَيُقَالُ لَهُ : اقْرَأْ وَارْقَ وَتُزَادُ بِكُلِّ آيَةٍ حَسَنَةً ، وقَالَ عنهما : هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ .

إنّ على المرء المخلص لربّه أن يتحمّل باقتدار مسـؤوليّة **التغيـير** لنفسـه ، **ليكـون أداة من أدوات التغيير فيمن حوله** .. فتغيـير الفـرد هـو مبدأ التغيير الاجتماعيّ ومنطلقه ، والذين يصـدقون مع الله ، ويخلصون لدين اللـه يرثـونَ خـيري الـدنيا والآخـرة ، إن همْ صـدقوا في التغيـير وجدّوا .. ولن يستطيع أصـحاب الحضـارة الحديثـة أن يقفـوا في وجههم ، مهما ملكـوا من أسـباب القـوّة ، وكـانوا على قدر كبير من الذكاء ، لأنّه ذكاء محكـوم بالـدنيا وشهواتها واهتماماتهـا ، كـذكاء البهيمـةِ في تحصـيل المرتع الهنيء ، والمشرب العذب ، والمنكح الذي لا يقف عندَ قيد .. ويعتمد على قـوّة النـاب والمخلب ، وهم لا يلتفتون إلى الحياة الآخرة ، ولا يرجـون للـه وقاراً ، ولا يخطر ببـالهم يومـاً أنّهم ملاقـو اللـه .. فماذا يرتجى منهم للإنسانيّة إلاّ الشقاء والعذاب .؟! ولن يكون سعيهم في الدنيا إلاّ إلى تباب .. وتلك سنّة الله في عباده ، والعاقبة للمتّقين ..

5 ـ النافـذة الخامسة : نافـذة التميّز ، أو مستوى النوع والكيف :

وإلى ذلك يشير قول الله تعالى : (ﯾ ـ ـ ـ ـ ـ ـ) النحل . وقوله سبحانه : (ﭞ ﭟ ﭠ ﭡ ـ ـ ـ ـ ـ ﻫ) العنكبوت .

وفي الحــديث الشريف : (إنّ اللهَ عزّ وجَــل يُحِبُّ إذا عَمِلَ أحَدُكُم عَمَلاً أن يُتقِنَه) [1] .

* ــــ وإنّ مشــــكلتنا مــــع النــــوع والكيــــف مُستعصية .. إذ نحسّ بضرورة الارتقاء به ، ولكنّنـا لا نحرص على تجويد العمـل ، ولا نصـدق في الالـتزام بالنوع والكيف ، وتسـتهوينا الكـثرة .. كـثرة الأعـداد والأرقـام ، فنقـف عنـدها ، ونجـري وراءهـا ، ونغـترّ بها .. ولا ننكر أنّ للكثرة أهمّيّتهـا ودلالتهـا ، ولكن على أن لا تــنزل عن مستوى من النــوع الجيّد ، وإلاّ كانت كلاًّ وعبئاً ..

---

[1] ـ أخرجه الطـبراني في المعجم الأوسـط 2/408والـبيهقي في شعب الإيمان 11/296/ عن عائشة رضي الله عنها .

كلّنا نصلّي ، ولكن ما نوع صلاتنا .؟! كلّنا يعمل ، ولكن ما نوع أعمالنا .؟! وما وزنها .؟! ومَا ثمرتها .؟! كلّنا يتعلّم ، ولكن ما نوع التعلّم الذي نتعلّمه .؟! ومَا ثمرته النفْسيّة والسلوكيّة .؟! **إنّ رجالات الإسلام بحقّ لا ينافسون إلاّ في المكارم ، ولا تصدّر بيوتهم للناس إلاّ الأسوة الحسنة ، وأمّا الدهماء فهي تشْغل نفسها بما ضمن لها من رزقٍ ، تكاد تموت وراءه من الهمّ ، ولا تكترث بما كلّفت من واجبات ، وهذا من انطماس البصيرة ، كما يقول ابن عطاء الله ..**

وإنّ القرآن الكريم **بمنهجه التربويّ الفذّ** يصنع أجيالاً متميّزة ، لا ترضى لنفسها أن تكون من العامّة المنقادة ، وإنّما ترقى إلى مصافّ النخبة المؤثّرَة ، التي تصحب ربّها بمشاعر الرغبة والرهبة ، والحبّ والشوق ، والعبوديّة الخالصة ، وتجعلُ من هذه الصحبَة أسلوب حياة ، ومنهج سلوكٍ متميّز .. قد شرَح الله صَدرها بالإسلام ، فهي على نور من ربّها .. وهي تتقدّم الصفوف

بجــدارة ، لتكــون المثــل الأعلى للنــاس في كــلّ ميدان..

وإنّ النوعيّة التي يحرص عليهـا الإسـلام تتجلّى في كلّ جانب من جوانب الحياة .. وإنّ من معجزاته العظيمـة أنّـه يصـنع من الخامـات البشـريّة السـائبة نمــاذج فــذّة من الرجــال .. يتــدرّج بهم في مــراقي الكمال ، ويكشـــف عن معـــادن ثمينـــة ، كـــانت يغطّيها الركام .. إنّه مع الضعيف حتّى يقوى ، ومـع المظلومِ حتّى ينتصِـرَ ، ومـع الفقـير حتّى يسـتغني ، ومع اليـتيم حتّى يكـبر ، ومـع الهـائم حتّى يسـتقرّ .. وإنّه لا يرضى لأحد من عباد الله أن يكون كلاًّ أو هملاً ، أو ضائعاً مستضعفاً ..

وإنَّ أصــحاب العقيــدة والمبــدأ هم أصــحاب التميّز والتألّق ، وإنّ منطقهم وسمتهم وحـالهم غـيرُ منطــق طلاّب المنــافع .. بــدنيء همّتهم ، وتفاهــة اهتماماتهم ..

ومن ثمّ فإنَّ المطلوب منّا أن نتميّز بكلّ شيء ، وفي كلّ ميدان ، ولكنّ أهمّ ميدان من ميادين التميّز التي تنتظرنا والأمّة تشكو فيه فقراً

مدقعاً ،وخواءً مروّعاً : هو التميّز الأخلاقيّ ، الذي فتح به أسلافنا العالم ، وكانوا بحقّ أساتذة الدنيا ، وأهمّ خلائق التميّز الأخلاقيّ : العفو والحلم ، وسعة الصدر وحسن الخلق ، والتحلّي بالمروءة ، والرحمة بعباد الله والشفقة .. ونحن اليوم بكلّ أسف نعاني من أزمة أخلاقيّة عاصفة ، من أخصّ علائقنا وأقربها إلى أوسعها وأعمقها .. فكيف لنا أن نجدّد فتح العالم بأخلاقنا ، وأن نكون متميّزين بها ، ويشار إلينا بالبنان .؟!

إنّ السلف من المؤمنين كانوا يمثّلون جيلاً من أحرار العقول ، وكبَار القلوب ، فعنْدما نصـرهم اللـه ملأوا الـدنيا حضـارة ونضـارة .. وهـذه الخلـوف مِن أبْنائهم المتنكّرون لدينهم هم كالأولاد العققة ، الذين يأكلون ميراث آبائهم ، ويتنكّرون لـدينهم ومبادئهم ، فكيف يقـدّمون الإسـلام للنـاس ، وهم لم يزكّـوا بـه نفْساً ، ولم يرفعوا به رأساً .؟! وإنّ الله تعـالى قـد يعذُرُ أصحابَ عقول ساذجة ، وفكر محـدود ، ولكنّـه لا يعـذر أصـحاب هـوىً غـالب ، ونيّـة مغشوشـة ، وإصرار على الفساد ، وترويج لـه .. وإنّ الـذكاء في

فهم الدنيا مع الغباء في فهم الآخرة يحـوّلُ الإنسـانَ إلى عبدٍ لشهَواته ، وقـد لا يصـحو من سـكرته حتّى يحين أجله ..

والتميّز الأخلاقيّ في هذه الأمّة عنوانه الكبير سيّدنا رسول الله ، بما كان عليه من شمائل كريمة ، وأخلاق عظيمة ، وقد خاطبه الله وأثنى عليه بقوله : (ﮛ ﮜ ﮝ ﮞ ﮟ) القلم .

وقوله سبحانه : (ﭗ ﭘ ﭙ ﭚ ﭛ ﭜ ﭝ ﭞ ﭟ ﭠ ﭡ ﭢ ﭣ ﭤ ﭥ .. ﭺ) آل عمران .

وقد وصف الله عباده المتّقين بسموّ أخلاقيّ رفيع ، إذ يعرضون عن جهل السفهاء وتطاولهم ، فقالَ تعالى : (ﯙ ﯚ ﯛ ﯜ ﯝ ﯞ ﯟ ﯠ ﯡ ﯢ ﯤ) الفرقان . كما حثّ من يساء إليه أن لا يجزي بالسيّئة السيّئةَ ، بل يعفو ويغفر تأسّياً برسول الله ، ورغبة في مغفرة الله وفضله ، فقالَ سبحانه : (ﭽ ﭾ ﭿ ﮀ ﮁ ﮂ ﮃ ﮄ ﮅ ﮆ ﮇ ﮈ ﮉ ﮊ ﮋ ﮌ ﮍ ﮎ ﮏ ﮐ ﮑ ﮒ ﮓ ﮔ ﮕ ﮖ ﮗ ﮘ ﮙ ﮚ) النور .

ومن النماذج القدوة في ذلك ما روي عن الحسن أنّه قال : قال رسول الله : (أَيَعْجِزُ

أَحَدُكُمْ أَنْ يَكُونَ مِثْلَ أَبِي ضَمْضَمٍ كَانَ إِذَا أَصْبَحَ قَالَ : " اللَّهُمَّ إِنِّي قَدْ تَصَدَّقْتُ بِعِرْضِي عَلَى عِبَادِكَ ") ***(1)*** .

---

[1] (?) ـ رواه أبـو داود في كتـاب الأدب بـرقم /4242/ عن قتـادة من قوله .

6 ـ النافذة السادسة : نافذة التحدّي :

يَقول الله تعالى : (□ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □) آل عمران .

الصـــراع والمدافعـــة ، والتحـــدّي بين الحـــقّ والباطل ، والخير والشرّ سنّة الله في الحيـاة ، وإلاّ يكن ذلك فهو الاستكانة للباطـل والاسـتخذاء .. ومـا ينالُ المرءَ من ذلك أسـوأ بكثـير ممّـا ينالُه بالصـراع والتحدّي ..

وإنّ أعظم ما نطالع فيه موقف النبيّ □ عنــدما قــال لعمّــه أبي طــالب : **(يــا عمّ ! واللــه لــو وضـعوا الشـمس في يميـني ، والقمـر في يساري .. على أن أترك هذا الأمر مـا تركتـه حتّى يظهره الله ، أو أهلك دونه) .**

ولا ننسى موقف الصدّيق □ يوم الـردّة ، **فهـو** من هـذه النافـذة ، والمشـكاة الفـذّة ، فقـال كلمتـه المشهورة : " **واللــه لأقــاتلنّهم ، حتّى تنفــرد سالفتي** " . وقوله □ : " **أينقُصُ الدينُ وأنا حيّ** ؟! " .

وهــل ينســى موقــف الفــاروق يــوم نقض المشــركون صــلح الحديبيــة فقــال لأبي ســفيان : " **والله لو لم أجد إلاّ الذرّ لجاهدتكم به "** .

وعلى ذلك توالت مواقف أئمّة الإسلام ، وَسيرُ العلماء الأعلام ، وما موقـف أحمـد بن حنبـل يـوم فتنة خلق القرآن عنّا ببعيد .!

ولسنا وحدنا الذين يقفون موقف التحدّي ، بــل إنّ أهل الباطل يتحدّون أهـل الحـقّ ببـاطلهم ، فمن أحقّ بالتحدّي والثبات على المبدأ .؟!

وإنّ موقف التحدّي يعني أنّ المؤمن ثائر أبداً : على نفسه وما هي عليه من خلائق وعـادات ، فهـو منها بالمرصاد ؛ آمر نـاهٍ ، مطـالب محاسـب ، وهي منه في نصب ووصب ، ومجاهـدة دائبـة .. وهـو أوّل التحـــدّي ، ثمّ على شـــيطانه الخفيّ ، ووساوســـه وتسويلاته .. وعلى شـياطين الإنس الـذين يحيطـون به من كلّ جانب ، ويفتنّون في إفساد دينه ..

وينبغي أن يُعلمَ أنّ **التحـــــدّي غـــــير ردّة الفعل** ، الــتي تتّســم بهــا أكــثر مواقــف النــاس ، فالتحــدّي موقــف إيجــابيّ مــدروس ، ينطلــق من المنهج ، ويتّصــف بالرســوخ والثبــات ، **أمّــا ردّة**

الفعل فهو موقف عـاطفيّ آنيّ ، كثـيراً مـا يـتراجع ويتراخى ، وقد يتشابه مع التحدّي من حيث المظهـر ، ولكنّه يختلف عنه من حيث الطبيعة والجوهر ..

* وإنّ أوّل شروط التحدّي أن تكـونَ الطليعـة المؤمنة بعيدة كلّ البعد عن مظاهر الانبهار بـالغَرب ، وما يُقَاربها أو يتّصل بها ..

ولقـد عجـزت الحضـارة الغربيّـة أن تقـدّم للبشريّة ما يسعدها ، وكانت بمادّيّتها وجشعها سبب شـقاء الإنسـان وتحطيم كيانـه ، وإنّ أصـدق وصـف للحضارة الغربيّة ، أنّها **حضـارة البغي والبغـاء** .. فكيف نتطلّـع إليهـا ، ونعجب بهـا ، ونلهث وراءها .؟ ونرتضي الانبهار بها .؟!

وإنمّا كان الجهاد في سبيل اللـه ذروة التحـدّي للباطـل ، لأنّه يعلي كلمـة الحـقّ ، ويحـرس العقيـدة ، ويصـون الحرمـات ، ويحْمي العبـاد والبلاد .. وإنّ نـيران الجهـادِ في سـبيل اللـه أشـبه بالمبِيـدات للحشـرات ، تحفـظُ الأمـوالَ ، وتحمي الزرع والضرع ..

وإنّ من سنن الله الاجتماعيّة أنّ الباطـل يمتـدّ في أيّ فراغٍ أمامهُ ، وأهل الباطل يسرقون العقائـد

والفضــائل ، ويريــدون فــرض الــزور والظلم على النـاس .. فـأين أهـل الحـقّ وحماته .؟! ومـا أصـدق قول الشاعر :

لا يسلمُ الشرف الرفيعُ من الأذى حتّى
يراقَ على جوانبه الدمُ

* عدّة التحـدّي : إنّ عـدّة التحـدّي تتجلّى في قول الله تعالى : (ۓ □□□□□□□□□□□□
ٻ ٻ ٻ ٻ پ پ پ پ ڀ ڀ ڀ ڀ ٺ ٺ ٺ) الأنفال .

وعندما تسبق تلك النوافذُ هذه النافذةَ .. وتأتي هذه النافذةُ في سياقها الصحيح ، ومسارها الطبَعيّ ، فإنّ التحدّي يقوم على أصوله الراسخَة ، فيضـربُ جذورَه ، ويؤتي ثماره ..

أمّــا إذا كــان التحــدّي باللســان ، ولم يعضــده بالعمل البرهان ، فهـو أشـبه بتخاصـم الصـبيان منـه بحركة العقلاء الألبّاء ، وهو بذلك نوع منَ العنتريّــات الفارغــة الكاذبة ، الــتي لا تنصــر حقّــاً ، ولا تهــزم باطلاً .. وهل ضاعت فلسطين وحقوق المسلمين إلاّ بمثلها .؟!

وما أبعد عنتريّات المدّعين عن حركات المُخلصين الصادقين .. وقديماً قال العرب في أمثَالهم : " **أوزعته سبّاً وأودى بالإبِلِ** " ..

7 ـ النافـذة السـابعة : نافـذة الصـبر واليقين :

يقول الله تعالى : (ﭼ ﭽ ﭾ ﭿ ﮀ ﮁ ﮂ ﮃ ﮄ ﮅ ﮆ ﮇ) السـجدة ، فـدلّت هـذه الآيـة الكريمـة على أنّ بالصــبر واليقين تنــال الإمامــة في الــدين .. وفي حديْث خبّاب بن الأرَتّ ﭬ : (.. وَاللهِ لَيُتِمَّنَّ **اللهُ** هَـذَا الأَمْرَ حَتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَـنْعَاءَ إِلَى حَضْـرَمَوْتَ لا يَخَــافُ إِلاّ اللــهَ أَوْ الــذِّئْبَ عَلَى غَنَمِــهِ وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ) [1] .

وتأمّل رحمة الله وفضله على عباده ! في كـلّ موقـف من حيـاة أنبيائـه ورسـله وأصـفيائه ، **فـإنّ ساعة العسرة ليوسف** عليـه السـلام وهـو **في قاع الجبّ كانت الطريق إلى القمّة في هذه الدنيا ، فمـا أعجب أقـدار اللـه** تعـالى **.!** ومـا أروع لطفه بأوليائه .!

---

[1] ـ رواه البخاريّ في كتاب المنـاقب بـرقم /3343/ وأبو داود في كتاب الجهاد برقم /2278/ وأحمد بـرقم /20148/ .

إنّ الصبر ليس كما يفهمه بعض الناس سـلوكاً سلبيّاً يعني الذلّ والخضوع .. وإنّما هـو الثبـات على الحقّ ، مهما تكن الظـروف الـتي يمـرّ بهـا المـؤمن شديدة قاسية ، واتّخاذ أسباب القوّة ، وإعداد العـدّة لمواجهة مع الباطل ، بعيدة الأمد ، طويلـة النفَس .. إنّـه الإعـداد النفسـيّ الجيّـد ، الـذي يسـبق الإعـداد المادّيّ ، ويفوقه أهمّيّة وأثـراً .. واليقين هـو التعلّـق الصادق باللـه تعـالى ، وبأسـمائه سـبحانه وصـفاته ، والتسليم لله تعالى في أمره ونهيه وجميع أقـداره ، والنظـر بعين البصـيرة إلى مـا وراء اللحظـة الحاضرة .. وإنّ لله تعالى مكـراً بـالمجرمين قـد تذهلهم عنه لذّات عاجلة ، أو انتصارات خادعـة ، أو تقلّب في البلاد مقـرون بالسـطوة والكـبر .. ولكنّ المؤمن ينبغي أن لا يفارق قلبه لحظة واحـدة أنّ العاقبة للمتّقين ..

وإنّ المطلـوب منْ أهـل الحـقّ أن لا يضـطرب يقينهم ، ويفـتر حماسـهم ، بـل يجب عليهم أن يصابروا الليالي الكالحة حتّى يدْركوا النصـر الإلهيّ ، وهو آت بلا ريب مهما طالت السنون .. وهـل يعربـد

الجبّـارون في الأرض إلاّ لفـراغ الأفئـدة منَ الإيمـان واليقين .؟!

إنّ الله ظهِـيرٌ للمـؤمن إذا قاتـل ، فهـو عنـدما يضرب تضرب معه قوى الأرض والسماء ، إنّه غطَاءٌ لقــدرة اللــه المنتقم من أعدائــه ، بعــدما توقّحــوا وتبجّحوا .. [1] .

يقول أحمد شوقي :

إنّ الذي خلق الحقيقة علْقماً لم يخلِ من أهل الحقيقة جيلاً

إنّ التديّن قـوّة وبصـيْرة ، وليس وهنـاً وغبـاء ، إنّــه خِلال كريمـــة ، وإنســانيّة رفيعـــة .. وإنّ من السـقُوط الـذي مـا بعـده من سـقوط أنْ تلين لمن يريد قهرك ، ويحطّ قدرك ، ويحقـر دينـك ، ويحـاول فتنتك ، والوفاء للحـقّ والمبـدأ يفـرض عليك الثبـات عليه ، والـولاء لمن يواليـه ، والـبراءة ممّن يعَاديـه ، واعتراض منْ يعترضه .. يقولُ أبو الطيّب :

---

[1] (?) - من كلام الشيخ محمّد الغـزاليّ في بعض كتبـه ، بتصـرّف وزيادة .

ذلّ من يغبطُ الذليل بعيشٍ   ربّ
عيشٍ أخفُّ منه الحِمَامُ
واحتمال الأذى ورؤية جانيْه   غذاءٌ
تَضْوَى بهِ الأجسامُ

إنّ المشاعر المعتلّة دليل إيمان مزيّف ، يحتاج إلى كثير من التصحيح والتمحيص والمداواة ..

وإنّ الجيلَ الذي يعييه الحقّ ، ويعجزه السباق ، والصبر والثبات ، يَطويه الردى ، ويهال عليه التراب ، ويجيء القدر بمن هم أنشط منه وأزكى .. إنّ الإيمان الحقّ بالله واليوْم الآخر يعصمُ من كلّ الدنايا ؛ يُقيّد الأيدي فلا تفتك ، والرغبات فلا تجمح ، والضمائر فلا تتعدّى وتجور ..

والحقّ أنّ أكثرَ الناس يكادون يفقدون رشدهم مع سكرة الحياة ومطالبها ، واللهاث وراء لذّاتها ، ويكاد ذكر الآخرة أن يكون نسياً منسيّاً ، كما أصبح ذكر الموت في نظر كثير من الناس

وعظاً بَارداً .. فما أحوج الدعاة إلى الصبر واليقين ، لمواجهـة هـذا الواقـع وتغييره .! ومـا أقـلّ حظّنا منهما .!

8 ـ النافذة الثامنة : نافذة الآثار :

يقـول اللـه تعـالى على لسـانِ إبـراهيم عليهِ الصلاة والسلام : (ﯖ ﭞ ﭟ ﭠ ﭡ ﭢ ﭣ) الشعراء . لقد سأل ربّه ذلـك لنصـرة الحـقّ ، وتأييـد الهـدى ، وليكـــون حظّـــه من التأسّـــي في القـــرون الآتيـــة موصولاً..

ويقول الله تعالى : (ﯘ ﯙ ﯚ ﯛ ﯜ ﯝ ﯞ ﯟ ﯠ ﯡ ﯢ ﯣ ﯤ ﯥ ﯦ ﯧ ﯨ ﯩ يس .

وإنّ آثـار أقـدام الصـدق بعـد الحيـاة ، وآثـار الأعمـال الصـالحة ، وبركاتهـا وثمراتهـا .. هي آثـار القدوات الذين يقولون في كلّ حال : (.. ﮪ ﮫ ﮬ ﮭ ﮮ) الفرقان .

وفي الحــديث الصــحيح : (يَـا بَنِي سَــلِمَةَ **!** دِيَـارَكُمْ تُكْتَبْ آثَـارُكُمْ **!** دِيَـارَكُمْ تُكْتَبْ آثَـارُكُمْ **!**) [(1)] .

---

[1](؟) أي الزموا ديارَكم تُكتَبْ آثارُكم . رواه مسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة بـرقم /1068/ عَنْ جَـابِرِ بْنِ عَبْـدِ اللهِ ﭬ قَالَ : خَلَتْ الْبِقَاعُ حَوْلَ المَسْجِدِ فَـأَرَادَ بَنُـو سَـلِمَةَ أَنْ يَنْتَقِلُـوا إِلَى قُـرْبِ المَسْـجِدِ فَبَلَـغَ ذَلِـكَ رَسُـولَ اللـهِ ﷺ فَقَـالَ

وتأمّل هذه الحياة : كلّ الناس يدخل هـذه الدنيا من باب ، ويخرج منها من بـاب آخـر .. وأكـثر الناس يدخل ويخرج ، فلا يُذكَرُ من دخل ، ولا يُـذكَر من خرج .. لأنّه لم يترك بعده ذكراً ولا أثراً ..

وإنّ آثـار الأقـدام بصـمات خـير على الإنسـان والأشياء .. وأفضلها مـا كـان على الإنسـان ، هدايـة وإصـلاحاً ، وامتـداداً للخـير والإصـلاح .. إنّـه الملء الراشـد لثـوانِ الحيـاة ودقائقهـا ، والضـنّ بهـا أن تضيع سدى :

دقّات قلب المرء قائلة له : إنّ الحياة دقائق وثوانِ

فارفع لنفسك بعد موتك ذكرها فالذكر للإنسان عمر ثانِ

واعلم أنّـه لابـدّ من تركـيز الجهـود على إبـراز القدوة لما لها من أثر كبير في نصرة الحقّ ، ونجـاح الدعوة ، ووضع الأبعـاد الحقيقيّـة للفكـرة ، وتـوارث المبدأ وقيم الحقّ حيّة ناميـة ، من الآبـاء إلى الأبنـاء بصورتيها : الفكريّة والعمليّـة ، إنّهـا القـوّة النفسـيّة ،

لَهُمْ : إِنَّهُ بَلَغَنِي أَنَّكُمْ تُرِيــدُونَ أَنْ تَنْتَقِلُــوا قُــرْبَ المَسْــجِدِ قَالُوا : نَعَمْ يَا رَسُولَ اللهِ قَدْ أَرَدْنَا ذَلِكَ فَقَالَ ﷺ الحديث ..

والشجاعة المعنويّة ، ولا يتقن فنّها إلاّ العظماء الكبـار .. وفي ذلك يقول الرافعيّ الأديب : " **رؤية الكبـار شـجعاناً هي وحـدها الـتي تخـرج الصـغار شـجعاناً ، ولا طريقـة غـير هـذه في تربيـة شـجاعة الأمّة** " . وقـل مثـل ذلـك في كـلّ خلـق كريم ..

والقدوة هم أهل الرسوخ والثبات على الحـقّ ، فلا يتقلّبون ، ولا يتلوّنون ، ولا يزيغـون ولا يميلـون ، وفي ذلك يقول الشاعر :

تزول الجبال الراسيات وقلبه على العهد لا يلوي ولا يتغيّرُ

ويقول الإمام ابن الجوزيّ رحمه الله تعالى : " **ينبغي للعاقل أنْ ينتهيَ إلى غاية ما يمكنه ، فلـو كـان يتصـوّر للآدميّ صـعود السـموات لـرأيت من أقبح النقـائص رضـاه بـالأرض ، ولـو كـانت النبـوّة تحصـل بالاجتهـاد رأيت المقصّر في تحصيلها في حضيض ، غير أنّـه إذا لم يمكن ذلـــــــك فينبغي أن يطلب الممكن ، والسـيرة الجميلـة عنـد الحكمـاء**

خروج النفس إلى غايـة كمالها الممكن لهـا في العلم والعمل " [1] .

ويقول الإمام ابن القيّم رحمه الله : "

النفوس الشريفة لا ترضى من الأشياء إلاّ بأعلاها ، وأفضلها ، وأحمدها عاقبة ، والنفوس الدنيئة تحوم حول الدناءات ، وتقع عليها كما يقع الذباب على الأقذار " [2] **.** ويقول الشاعر :

دببتَ للمجد والساعون قد بلغوا جهدَ النفوس وألقَوا دونه الأزُرا

فكابَرُوا المجدَ حتّى ملّ أكثرُهم وعانقَ المجدَ مَن أوفى ومَن صَبرا

لا تحسب المجدَ تمراً أنتَ آكلُه لن تبلغَ المجدَ حتّى تلعقَ الصبرا

فهل فكّرنا في آثار أعمالنا .؟! وأن نكون قـدوة لمن بعـدنا .؟! إنّ التفكـيرَ في ذلـك ـ مجـرّد التفكـير ـ لابـدّ أنْ يرتـدّ عليهـا وعلينـا بالمراجعة والمحاسبة ، والتغيير والتطوير ..

---

[1] ـ صيد الخاطر ص/159/ .
[2] ـ الفوائد ص/198/ .

وأرع سمعك وقلبـك وصـيّة الأسـتاذ عمـر بهـاء الدين الأميريّ رحمه الله ، لتترك من بعـدك ذكـرى طيّبة حسنة :

فخذ لك زادين : من سيرةٍ ومن عملٍ صالحٍ يُدّخر

وكُن في الطريقِ عَفيفَ الخُطا شَريفَ السماعِ كَريمَ النظر

وكُن رَجلاً إن أتَوا بَعـدَه يقُولونَ : مَرّ ، وهذا الأثَر

الخاتمة وَنَسألُ الله حُسنَها بِمَنِّه وَكَرَمِه

أيّها السائر في ركب الدعوة الميمون ، مـوكب الهدايـة الربّانيّـة .. تـذكّر طفولتـك الدعويّـة كيـف كـانت ، وكيـف بـدأت .؟! لقـد كنت فطـرة دعويّـة نقيّـة ، تـأبى الـدنس ، وتـألف العـزائم ، وتـأنف الـترخّص .. واليـوم تكـاثرت في جسـدك الجـراح ، وتناوشتك السهام من كـلّ جـانب .. فاحذَر أن تصـيبَ منك مقتلاً .. فكم من قتيل هوى .! وكم من سـاقط على قارعـة الطريـق دون الهـدف .! فاحـذر من صـورة السـير دون حقيقتـه ، ومن عقبـات وألهيـات دون غايته .. فالعمر محدود ، والنفس معدود ، وعند الصباح يَطيبُ الكَرى [1] ، ويحمد القوم السرى ..

وإنّ ما مرّ بك أخي المؤمن في هذه الصفحات ألوان من أدب العبوديّـة .. والتحقّـق بـأدب العبوديّـة يجعَـل المـؤمن محـلّ عنايـة اللـه تعَـالى ورعايتـه ،

---

[1] (؟) ـ كنايـة عن المـوت ، فقـد جـاء في حـديث ملكي السـؤال في القـبر قـولهم للمـؤمن : " نمْ كمـا تنـام العروس .. " .

ومحبّته وولايته ، كما جاء في الحـديث القدسـيّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قـال : قـال رسـول اللـه : (إِنَّ اللـهَ قَالَ مَنْ عَادَى لِي وَلِيّاً فَقَدْ آذَنْتُـهُ بِـالحَرْبِ ، وَمَـا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَـيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْـتُ عَلَيْهِ ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِـلِ حَتَّى أُحِبَّهُ ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَـمْعَهُ الَّذِي يَسْـمَعُ بِـهِ ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِـرُ بِـهِ ، وَيَـدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَـا ، وَرِجْلَـهُ الَّتِي يَمْشِـي بِهَـا ، وَإِنْ سَـأَلَنِي لأُعْطِيَنَّهُ ، وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لأُعِيذَنَّهُ ، وَمَـا تَـرَدَّدْتُ عَنْ شَـيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ المُؤْمِنِ ، يَكْرَهُ المَوْتَ ، وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ) [1] .

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قال : قال رسول الله :
(إِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى إِذَا أَحَبَّ عَبْداً نَادَى جِبْرِيلَ : إِنَّ اللهَ قَدْ أَحَبَّ فُلاناً فَأَحِبَّهُ ، فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ ، ثُمَّ يُنَادِي جِبْرِيلُ فِي السَّمَاءِ : إِنَّ اللهَ قَدْ أَحَبَّ فُلاناً فَأَحِبُّوهُ ، فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ ، وَيُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي أَهْلِ الأَرْضِ) [2] .

---

[1] رواه البخاريّ في كتاب الرقاق برقم /6021/ .

[2] رواه البخـاريّ في كتـاب التوحيـد بـرقم /6931/ ، ورواه الترمذيّ وزاد في روايته /3085/ : (فَـذَلِكَ قَـوْلُ اللـهِ : (ﭙ

فهل فَكّرنا أيّها الأحبّة ! في عمَل نعبد الله به ، يكون أحبّ الوجوه إلى الله تعالى .؟! فنحسن بذلك إلى أنفسـنا ، ويكـون لنـا قـدم صـدقٍ راسـخٍ في آخرتنا .. ولا أراه فيما أحسـب إلاّ أن نكـونَ نفّـاعين لعباد الله تعالى .. من أيّ لون وجنسٍ كـانوا ، نوعـاً من النفـع المميّـز ، قـد يختلـف عن كـلّ مـا اعتـاده الناس من أنواعـه .. ولعلّكم تسـألونني عنـه .. وأنـا بدوري أسألكم عنـه ، فليفكّـر كـلّ منّـا فيـه ، وليكن مبدعاً معطـاءً ، ولا يكن اتّكاليّـاً على غـيره .. ثمّ أن نكونَ دفّاعين عن عباد الله كلّ أذىً ومكروه .. وابدأ بنفسـك ، ثمّ بمن تعـول .. واعلم أن الأقـربين أولى بـالمعروف .. وأنّ أهمّ مـا تـدفع عن نفسـك ، وعمّن تعول تلـك الفتن الهائجـة المضـلّة ، الـتي يصـبح الرجـل فيهـا مؤمنـاً ، ويمسي كـافراً ، ويمسي مؤمناً ، ويصبح كافراً ، يبيع دينـه بعـرض من الدنيا .. فهَل لنـا أن نبحث عن المخـرجِ ممّـا نحن فيه ، ونهتدي إليـه قبـل فـوات الأوان .؟! إنّـا لـنرجو من اللـه التوفيـق إلى ذلـك ، والعـون على مـا

ٮ ٻ ٻ ٮ ٮ ٻ ٻ ٮ)) .

يرضيه .. اللهمّ إنّك سألتَنا من أنفسنا ما لا نملكه إلاّ بك ، اللهمّ فأعطنا منها ما يرضيك عنّا .

وإنّ خيرَ من تحقّق بأدب العبوديّة لله تعالى سيّدنا رسول الله ، فمَن أراد أن يتحقّق بذلك فليلزم ركاب السنّة ، فهي مفتاح الرضَا والجنّة .. ومن أجلى ما تتجلّى فيه عبوديّة سيّدنا رسول الله لله تعالى ، الدعاء والتذلّل بين يدي الله سبحانه ، وخير ما أختم به حديثي معكم **أيّها الأحبّة !** هذا الدعَاء النبويّ الجَامِع : عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : سَمِعْتُ نَبِيَّ اللهِ يَقُولُ لَيْلَةً حِينَ فَرَغَ مِنْ صَلاتِهِ :

(اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِكَ ، تَهْدِي بِهَا قَلْبِي ، وَتَجْمَعُ بِهَا أَمْرِي ، وَتَلُمُّ بِهَا شَعَثِي ، وَتُصْلِحُ بِهَا غَائِبِي ، وَتَرْفَعُ بِهَا شَاهِدِي ، وَتُزَكِّي بِهَا عَمَلِي ، وَتُلْهِمُنِي بِهَا رُشْدِي ، وَتَرُدُّ بِهَا أُلْفَتِي ، وَتَعْصِمُنِي بِهَا مِنْ كُلِّ سُوءٍ . اللَّهُمَّ أَعْطِنِي إِيمَاناً وَيَقِيناً لَيْسَ بَعْدَهُ كُفْرٌ ، وَرَحْمَةً أَنَالُ بِهَا شَرَفَ كَرَامَتِكَ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ . اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْفَوْزَ فِي القَضَاءِ ، وَنُزُلَ الشُّهَدَاءِ ، وَعَيْشَ السُّعَدَاءِ ، وَالنَّصْرَ عَلَى الأعْدَاءِ . اللَّهُمَّ إِنِّي أُنْزِلُ بِكَ حَاجَتِي ، وَإِنْ قَصُرَ رَأْيِي ، وَضَعُفَ عَمَلِي ، افْتَقَرْتُ إِلَى

رَحْمَتِكَ ، فَأَسْأَلُكَ يَا قَاضِيَ الأُمُورِ ، وَيَا شَافِيَ الصُّدُورِ ، كَمَا تُجِيرُ بَيْنَ الْبُحُورِ ، أَنْ تُجِيرَنِي مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ ، وَمِنْ دَعْوَةِ الثُّبُورِ ، وَمِنْ فِتْنَةِ الْقُبُورِ .

اللَّهُمَّ مَا قَصُرَ عَنْهُ رَأْيِي ، وَلَمْ تَبْلُغْهُ نِيَّتِي ، وَلَمْ تَبْلُغْهُ مَسْأَلَتِي ، مِنْ خَيْرٍ وَعَدْتَهُ أَحَداً مِنْ خَلْقِكَ ، أَوْ خَيْرٍ أَنْتَ مُعْطِيهِ أَحَداً مِنْ عِبَادِكَ ، فَإِنِّي أَرْغَبُ إِلَيْكَ فِيهِ ، وَأَسْأَلُكَهُ بِرَحْمَتِكَ رَبَّ الْعَالَمِينَ .

اللَّهُمَّ ذَا الحَبْلِ الشَّدِيدِ ، وَالأَمْرِ الرَّشِيدِ ، أَسْأَلُكَ الأَمْنَ يَوْمَ الْوَعِيدِ ، وَالجَنَّةَ يَوْمَ الخُلُودِ ، مَعَ الْمُقَرَّبِينَ الشُّهُودِ ، الرُّكَّعِ السُّجُودِ ، المُوفِينَ بِالْعُهُودِ ، إِنَّكَ رَحِيمٌ وَدُودٌ ، وَأَنْتَ تَفْعَلُ مَا تُرِيدُ . اللَّهُمَّ اجْعَلْنَا هَادِينَ مُهْتَدِينَ ، غَيْرَ ضَالِّينَ وَلا مُضِلِّينَ ، سِلْماً لأَوْلِيَائِكَ ، وَعَدُوًّا لأَعْدَائِكَ ، نُحِبُّ بِحُبِّكَ مَنْ أَحَبَّكَ ، وَنُعَادِي بِعَدَاوَتِكَ مَنْ خَالَفَكَ . اللَّهُمَّ هَذَا الدُّعَاءُ وَعَلَيْكَ الإِجَابَةُ ، وَهَذَا الجُهْدُ وَعَلَيْكَ التُّكْلانُ .

اللَّهُمَّ اجْعَلْ لِي نُوراً فِي قَلْبِي ، ونُوراً فِي قَبْرِي ، ونُوراً مِنْ بَيْنِ يَدَيَّ ، ونُوراً مِنْ خَلْفِي ، ونُوراً عَنْ يَمِينِي ، ونُوراً عَنْ شِمَالِي ، ونُوراً مِنْ فَوْقِي ، ونُوراً مِنْ تَحْتِي ، ونُوراً فِي سَمْعِي ، ونُوراً فِي

بَصَرِي ، ونُوراً فِي شَعْرِي ، ونُوراً فِي بَشَرِي ، ونُوراً فِي لَحْمِي ، ونُوراً فِي دَمِي ، ونُوراً فِي عِظَامِي ، اللَّهُمَّ أَعْظِمْ لِي نُوراً ، وَأَعْطِنِي نُوراً ، وَاجْعَلْ لِي نُوراً . سُبْحَانَ الَّذِي تَعَطَّفَ الْعِزَّ وَقَالَ بِهِ ، سُبْحَانَ الَّذِي لَبِسَ المَجْدَ وَتَكَرَّمَ بِهِ ، سُبْحَانَ الَّذِي لا يَنْبَغِي التَّسْبِيحُ إِلاّ لَهُ .. سُبْحَانَ ذِي الْفَضْلِ وَالنِّعَمِ ، سُبْحَانَ ذِي المَجْدِ وَالْكَرَمِ ، سُبْحَانَ ذِي الجَلالِ وَالإِكْرَامِ) (1) .

وصلّى الله على عبده ونبيّه سـيّدنا محمّد ، النـــبيّ الأمّيّ الطـــاهر الـــزكيّ ، وعلى آله وصـحبه وسـلّم . وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين .

---

[1] (؟) رواه الترمذيّ في كتاب الدعوات برقم /3341/ وقَالَ : هَذَا حَدِيثٌ غَرِيبٌ لا نَعْرِفُـهُ مِثْـلَ هَـذَا مِنْ حَـدِيثِ ابْنِ أَبِي لَيْلَى إِلاّ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ .

الموضوع	رقم الصفحة
الإهدَاءُ .... - .... -	5
هَذِهِ النوَافِذُ .... -	7
* العلاقة بين هذه النوافذ : .... -	10
كلمات مضيئة .... -	11
....	13
* **بين العبوديّة والعبادة** :	19
تعريف الإمام ابن تيمية للعبادة :	20
تعريف العبوديّة من الوجهة النفسيّة :	21
العبوديّة الحركيّة	21

هذا الكتاب

مَعــالم عُبوديّة حَرَكِيّة رَاشــِدة ، تبثّك شــيئاً من أشــجان الــروح ، وتفتح لك نوافذ للخير أشبه بأبواب الجنان ..

إنّها نوافذ الســموّ الــدعويّ ، ومأدبة العبوديّة الصــــــادقة ، ومفاصل الحيويّة الإيمانيّة ، الحركيّة المتألّقة ..

إنّها نماذجُ لنوافذ الخير التي تطــلّ بك على أبواب الجنان ، وتفتحها لك بــإذن الله .. وتسرّ إليك أنّ نوافذَ الخير ما أكثرها .!

إنّها نوافــذُ إيمانيّة حركيّة ، تنطلق من النفس ، ويتعـــدّى خيْرُها النفس ، إحيـــاء للمنهج الربّانيّ ، ليكون لها منْ نفع الآخـرين منهج حياة ، لا تكلّ عنه ولا تحيد ..

إنّها نوافــذُ الأهــداف الشريفة ، الــتي تجعلُ لكلّ لحظةٍ مِن لَحظَاتِ الحياة قيمــةً عليا ، تقدّر بجنّة عرضها السموات والأرض ..